هبة دلّة

البحث عن نهايات

(رواية)

» اسم الكتاب: **البحث عن نهايات.**
» اسم المؤلفة: **هبة دلّة.**
» الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-705-08-4
» سنة الطباعة: مارس 2024.

طبعة مشتركة الحقوق بين المؤلف والناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

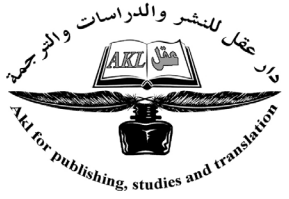

دار عقل للنشر
واتساب وتلغرام: 00963932832010
aklpublishing@gmail.com

الثقافة الروسية للنشر
واتساب وتلغرام: 00201060253858
russianculture.egypt@gmail.com

دمشق - القاهرة

الإهداء

إلى معلمي الأول
أبي (أبو هاني)

إلى مصدر طاقتي
أمي (أم هاني)

إلى أحب الأشخاص إلى قلبي، إخوتي
هنا وهاني وهالة
وأحمد (أخي الصغير) الذي آمن بموهبتي ودفعني للكتابة

إلى من أعطاني أجمل إحساس في الحياة
جود ووسيم وهايدي أولادي

إلى مدرسة اللغة العربية
إلهام الإمامي

وأخيراً إلى صديقي ورفيق الدرب والذكريات وداعمي الأول والأخير،
إلى زوجي الحبيب
رائد ناصر

(1)

يوم عادي في العمل. حاولت أن تتخلص من كل أفكارها وما دار بينهما بالأمس. حاولت مليّاً ألّا تفكر بمغزى ما قصده البارحة. قرّرت أن تغرق نفسها في العمل طوال ساعات النهار وأن تبقي عقلها مشغولاً، فوجدت ضالّتها في المكالمات الهاتفية المترتّبة عليها لشركات التأمين الصحي لكل مريض، هذه المكالمات التي لا تطيقها!

كان عملها في البدء ترتيب مواعيد المرضى والتأكد من معلومات التأمين الصحي لكل مريض. سرعان ما اكتسبت مهارات جديدة وأصبحت ترافق الأطباء لمعاينة المرضى وأصبح هذا الجزء من عملها الأقرب إليها.

لكن! لم تنجح كل المحاولات في إبعاده عن تفكيرها لتتفاجأ به يأتي من المجهول ويبدو عليه الضّياع، عيناه تبحثان عن شيء ما بكلّ شغف. انتبهت إليه قبل أن يعثر عليها وكأنّ ستاراً لمسرح ضخم يفتح للتّوّ وهي وحيدة على خشبة أمام مئات الكراسي المشغولة بالمشاهدين.

أخيراً التقت الأعين! حملقت، تجمّدت، أرادت أن تبحث عن أي مظهر من مظاهر الحياة أو الواقع. هل هو حلم أم حقيقة؟ أم أنها خيالات شريط سينمائي (رومانسي)؟

تقدم نحوها ببطء كمن وجد ضالّته بعد بحث طويل. لم تلق عليه التحية، بقيت كما هي يحيط بهما صمت رهيب حتى نطقت:

– ماذا تفعل هنا؟ كيف وجدت مكان عملي؟

قال لها:

– مرحباً، جمعت قصاصات من معلومات كنت قد تركتها هنا وهناك عن طبيعة عملك مع الأطباء وأسمائهم التي ذكرتهم في مرات سابقة وعن مكان عملك في المدينة الطبية، ساعدتني ذاكرتي التي احتفظت بهذه المعلومات وقادتني أبحاثي عنك إليك، لكن الأمر الذي أثق به هو أن إحساسي من قادني إليك!

بادرته بسؤال صغير:

– لماذا جئت؟

– هناك شيء لا أستطيع أن أخبرك به هنا. هل لك أن تتبعيني بسيارتك بعد انتهاء عملك؟

سألته:

– إلى أين؟

– ثقي بي، رجاءً. هل تستطيعين المغادرة الآن أم لا بدّ من الانتظار لحين انتهاء ساعات العمل؟ ثقي بي أرجوكِ.

كان هناك دوار في رأسها، في معدتها، وربما في قلبها!

تمتمت بحروف غريبة حتى خرجت حروف واضحة:

– أظنّ أنه يمكنني المغادرة الآن.

قال لها:

– سوف أنتظرك في الطابق الثالث من المرآب، لا تقلقي أعرف سيارتك جيداً، سوف أخرج بسيارتي قبلك وما عليك إلا أن تتبعيني.

مرة أخرى قال لها بكل ثقة:

– ثقي بي رجاءً.

غادر جلال بعدها، جلستْ إلى مكتبها وهي تهذي لبضع دقائق، تحاول استيعاب الأمر، وفي نهاية المطاف عزمت أمرها وجمعت أشياءها في حقيبتها وغادرت.

ومن هول ما حدث ومفاجأة جلال لها في مكان عملها، تذكرت عند باب المصعد أنها لم تسجّل ساعة خروجها من العمل. لم تعر هذا التفصيل أي اهتمام، لكنها ندمت أنها لم تلق نظرة في أقرب مرآة قبل أن تخرج، سيكون من الصعب أن تصلح (مكياجها) أو ترتّب شعرها في السيارة وخاصة إن كان يراقبها.

حين وصلت إلى الطابق الثالث من المرآب، أضاء لها بأنوار سيارته. سارت خلفه بسيارتها ولا تعرف إن كانت تتبع سيارة سوداء أو تتبع قلبها دون تفكير. أخذ الخروج من ازدحام المدينة الطبية

عشرين دقيقة، لم تتمكن فيها بعد السيطرة على أنفاسها أو دقّات قلبها، لم تتمكن من استيعاب ما تقوم به أيضاً، يأخذها للمجهول وتتبعه بلا إرادة، تعرف أنه يراقبها بمرآة سيارته حتى لو لم تتمكن من رؤيته. كان أمامها الطريق المؤدي لمنزلها، لم يتأخر الوقت بعد، يمكنها الآن وبدون تغيير لخطّ سيرها أن تكمل طريقها للبيت وتخرج نفسها من هذا المأزق، لكنها لم تفعل. سارت خلفه حتى بدأ يسلك طرقاً فرعية ليخرج من المدينة الطبية. بدت الشوارع أقلّ اكتظاظاً وأكثر أشجاراً. هدأت حركة السير قليلاً مما جعل أيضاً خفقات قلبها تهدأ قليلاً. كانت البيوت والحدائق المحيطة بها أنيقة تنمّ عن عراقة هذا الحي الذي كانت تجهله تماماً بالرغم من أنه لا يبعد عن مكان عملها كثيراً. سارا حتى وصلا إلى موقف سيارات تابع لنادي (غولف). ركن جلال سيارته وانتظرها حتى ركنت هي أيضاً سيارتها. أطفأ محرك سيارته وترجّل وسار باتجاهها. أطفأت محرك سيارتها وترجّلت أيضاً، عادت خفقات قلبها تتسارع وتعلو حتى تكاد تسمعها كلما اقترب منها أكثر. كانت أنفاسها شبه متقطعة كمن يتسلق جبلاً شاهقاً وعلامات استفهام تدور في رأسها ونظرات حيرة في عينيها، وبلمسة خاطفة منه لوجها أمسك بها، أحاط وجهها بيديه وبدأ يقبّلها، انهمر على شفتيها، أغمض عينيه ليفرّغ شوقه كمن أتعبه المشوار أو الانتظار.

كانت في حالة استسلام للحظة، وكأنها أذنت لقلبها وأنفاسها بالهدوء. أغمضت عينيها لتوقف الزمن ولتشبع روحها من هذه اللحظة. هي المرة الأولى التي تدرك فيها فعلاً دوران الأرض، كل شيء حولها يدور، لا تكترث ما دامت يداه تلمسان وجهها وشفتاه تلمسان شفتيها، هي إذاً ثابتة لا تدور.

نظر إليها ملياً وهو يثبّت عينيه في عينيها، قال لها:

– أحبك... أحبك، حقيقة خِلت أنها يوماً وهم أو إعجاب بفتاة أو بجسد فتاة أو بضحكة فتاة. وجدتني أغرق فيك أكثر وأكثر، في كل مرة نلتقي، يصبح ما حولي سراباً وتبقين أنتِ سيدة الموقف. تلك الراحة التي ألمسها بقربك وكلما نظرت إلى وجهك وتأملت صفاء عينيك. أيقنتُ أنه الحب، أيقنت ذلك بالأمس وواجهت نفسي وجئت لأعترف إليك، أحبك... أحبك بتفاصيل ترويها بأسلوبك وبتمايل جسدك دون انتباه، بنبرة صوتك. واجهت نفسي بالأمس وقررت أن أواجهك الآن. اعذريني إن كنت قد قبلتك، لقد عقدت عزمي أن أقبلك قبل أن أصارحك بما في خاطري. لن أعتذر أني تسرعت لأني أعرف أنها قد تكون فرصتي الوحيدة لملامستك ولم أشأ أن أضيّعها.

كانت ترتجف بين يديه، شعر بارتجافها فضمّها إليه بقوة. توحّدت به. أحسّت بأنها تبكي لكنها لم تذرف دموعاً. شعرت

بقلبها يعتصر. ربما يعلن له أنها قبلت بحبه وأشرعت له الأبواب والمباركات. بقيت ساكنة. لم تجد كلاماً تجيب به. لكنه شعر بالارتياح لدفء جسدها ونظرتها فكان بمثابة جواب أو ربما تقبّل.

أمسك يدها واستندا معاً إلى أحد جوانب السيارة وبقيا صامتين لدقائق، تستعيد في مخيلتها كلماته واعترافاته وتنظر إليه لتتأكد أن ما حصل ليس ضرباً من الخيال أو الأحلام. قطعت صمتهما وقالت:

– عليّ العودة إلى المنزل.

اعتصر يديها كأنه يحاول إبقاءها، لكن حان موعد الرحيل. سألها:

– كل ما أريده الآن هو أن نكون معاً، أريدك شريكة لحياتي ورفيقة روحي للأبد؟

ردّت:

– هناك أشياء كثيرة تدور في رأسي، أرجوك أنا بحاجة لوقت كافٍ، أولاً لأستوعب ما حدث، وأريد وقتاً أطول وشجاعة أكبر لأقرّر ما سيحدث لاحقاً.

احتضنها مرة أخرى ودفع يده إلى خصلات شعرها وعيناه ثابتتان بعينيها.

– لا يهمّ الوقت، سأنتظر قرارك مهما طال، ما يهمني لحظات كهذه عشتها معك وستكون أملي للغد. لستُ نادماً على اعترافي وإن اضطررت أن أواجه عالمك وعالمي بأجمعه، طبعاً إنْ أردتِ أنتِ هذا! قبل أن تغادري كوني على ثقة أني مدرك تماماً ما فعلت. هذا ما خططت له بعقلي وقلبي. فأرجوك ثقي بي... أحبكِ...

مدّ يدها إلى شفتيه وطبع قبلة في راحة يدها. غادرت مبتسمة وهي تنظر إليه. لم تعد تقف على أرض صلبة. أحسّت أن الأرض تتحرك تحت قدميها وهي ترتجف فوقها وثمّة خدر في رأسها يتغلغل إلى كل أطراف جسدها. ومع كل هذا التيه، أسعدتها فكرة أنه يبادلها هذا الشعور الغريب. ظنّت في كثير من الأوقات أنها ساذجة، تحيك في مخيلتها قصة حب غير موجودة. كان هو ثابت الخطى، اعترف بمشاعره لها واعترف بمشاعره لنفسه من قبل.

هل الاعتراف بهذا الحب وهذه المشاعر هو الاعتراف بالخطيئة التي لم تبدأ؟ أم هي بداية النهاية لعلاقة لم تبدأ؟

(2)

إنّه جلال، صديق العائلة المقرّب، ينتمي إلى عائلة انصهرت تماماً بالمجتمع الأمريكي. كان متزوجاً من امرأة أجنبية، وقد غاب عن المدينة بضع سنين للعمل في الخليج مع شركته. التقيتُ جلال أول مرة بعد عودتي أنا وسامي من شهر العسل، أصرّ هو وزوجته على دعوتنا إلى العشاء. كان اللقاء في مطعم إيطالي ذي ذوق عالٍ وبسيط معاً. كان له حضور آسر ونبرة صوت جذّيّة وجذّابة في آن واحد. كان أغلب الحديث يدور باللغة الإنكليزية لوجود زوجته (ليز) التي لا تتكلم اللغة العربية إطلاقاً.

لاحظ ارتباكي كوني جديدة في بلاد الأعاجم ولا أملك الشجاعة لأشارك معهم بالحديث بلغتي الإنكليزية المتواضعة، فكان يوجّه حديثه إليّ بين الحين والآخر باللغة العربية. استطعت أن أستشفَّ لباقته وأدبه في الحديث عندما كان يضمّ زوجته إليه ليترجم لها ما نقول.

لم يكن اللقاء أكثر من عشاء في مطعم وشخصين يتقابلان لأول مرة. خرجنا وكنت لا أزال تحت سطوة جاذبيته ولباقته.

تتالت اللقاءات، لم يقلّ إعجابي به ولم أعتد عليه كصديقٍ لسامي ولم يخبو بريق اللقاء الأول.

في كل مرة كنّا نلتقي كان يحرص على الحديث معي عن أشياء تسعدني كالموسيقا التي أستمع إليها، نوعية الروايات التي أعشق قراءتها، فوجدنا الكثير من القواسم المشتركة التي فتحت المجال للكثير من المحادثات. كان أغلبها يدور حول جمالية الرواية باللغة الأم أو بالترجمة إلى لغات نتكلمها. كان من مناصري قراءة الرواية باللغة الإنكليزية لسلاستها وخاصة إن كانت من الأدب الإنكليزي القديم، وكان رأيي الخاص أن الرواية لا تفقد شيئاً من بريقها إن ترجمت إلى لغات أخرى ليستمتع بها أكبر عدد ممكن.

اختفى جلال بعد ذلك لمدة عام ونصف. كنت أدرك أن ثمّة مشاكل بدأت تظهر في علاقته مع (ليز)، استشففت من حديثي المتواضع معها أن الأمور ليست على ما يرام، فقد أخبرتني في مرة أنها لم تعد تشعر بالسعادة مع جلال، لكن جلال لم يخبرنا عن أي تغيرات في علاقته مع (ليز). كان دائم التحجّج بالعمل الشاقّ ليتهرّب من لقائنا. أخبرنا فيما بعد أنه تم الانفصال عن زوجته وكان بطريقة راقية لكنه احتاج أن يبتعد قليلاً بعد الانفصال. شعرنا ببعض المسؤولية تجاهه وحاولنا أكثر من مرة دعوته للعشاء أو لقضاء يوم معنا. كان يعتذر في أغلب المرات وحتى عندما كنا نلتقي كانت لقاءات سريعة فيها الكثير

من السجائر والقليل من الحديث. اعتدنا بعد ذلك على اختفائه وخاصة أننا كنّا قد تعرّفنا على عائلة عربية تسكن بالقرب منّا وبدأنا بالخروج معاً.

عاد جلال لحياتنا ثانيةً بعد حوالي عامين. زارنا ليبارك لنا بولادة طفلتنا الأولى (سنا). لم تظهر عليه علامات الكبر أو الإحباط أو الاكتئاب بل اكتسب المزيد من الوسامة وكان جليّاً على جسده الساعات الطويلة التي يقضيها في النادي الرياضي، ومحاولاته الإقلاع عن التدخين.

كان يساورني في كل لقاء شعور خفيّ بأن اهتمامه بي له طابع خاص، لكن سرعان ما أطرد هذه الهلوسات من رأسي، خاصة أنه لم يتخطّ حاجز اللباقة والأدب ولا في أي لقاء. شعور خفيّ يتّقد لثوانٍ في نظرة عابرة تحمل أكثر من احتمال، ليخمد وأنساه لأوقات طويلة باختفائه مجدداً.

كانت حياتي مع سامي حياة عادية لكنها مليئة بالحب والتفاهم وبعض المشاكل التقليدية لأي زوجين. ربما زادت وتيرة المشاكل بيننا بعد ولادة (سنا) خاصةً أن والدته انتقلت للسكن معنا بعد أن تركت منزل ابنتها في مدينة (ديترويت)، حتى هذه المشاكل لم تشكل لنا عبئاً كبيراً أو عدم استقرار.

كان سامي يتمتع برجاحة عقل وينهي الخلاف ويبدأ

بالصلح. كان يجد دائماً صيغة تفاهم وأسلوب حياة بيني وبين والدته.

جاء جلال لزيارتنا وليخبرنا أنه قبل عرضاً من الشركة التي يعمل فيها وهو الانتقال للعيش في الخليج ليشرف على أحد المشاريع هناك. كان يوجّه الحديث بالمطلق لوالدة سامي سيّما أنه تجمعه بها علاقة أمومة كون والدته ووالدة سامي كانتا جارتين أيّام الصّبا في دمشق وبقيتا على تواصل حين انتقلت كل منهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث توفى الله أم جلال في سنّ مبكّرة. كان جلال في الثامنة عشرة من عمره، تزوج والده بعد عام ونصف من وفاة والدته وانتقل جلال بعدها للعيش بمفرده حيث أصبحت علاقته بوالده شبه مقطوعة.

عرفت كل هذه المعلومات من والدة سامي التي كانت مقرّبة منه كثيراً في تلك الفترة وتحرص دائماً على مهاتفته ولقائه للاطمئنان عليه.

غادر جلال منزلنا بوداع أقل من عادي. أحسست أنه يتحاشى النظر إليّ عندما ودعني وقال:

– إلى لقاء قريب ودعواتك لي بالتوفيق.

غادر جلال مدينتنا، ولم أدرك ما أصابني فقد كنت على درجة عالية من العصبية دون سبب. أشعر بأن شيئاً يقبض

على قلبي، كان من الغباء الاعتراف أن هذا كله بسبب سفر جلال!

أخذتنا دوامة الحياة أكثر وأكثر عندما رزقنا بابنتنا الثانية (ياسمينة) وقررت البدء بالدراسة من جديد. كان شيئاً بداخلي يدفعني لأبحث عن حلم أحقّقه لذاتي بعيداً عن مسؤوليات الأطفال والبيت. شجّعني سامي أن ألتحق بكلية قريبة من منزلنا تتيح دورات مكثفة بدوام ليلي وعبر شبكة الإنترنت. لم تكن بالخطوة الهيّنة، احتاجت هذه المرحلة للكثير من الجهد والتركيز في استثمار الوقت بشكل مفيد لا سيّما أنه كان مطلوباً مني التوفيق بين واجباتي كأم وزوجة ومن جهة أخرى كطالبة من جديد. كنت سعيدة جداً بالنتيجة التي وصلت لها في نهاية المطاف عندما استطعت أن أنهي دراسة فرع جديد عليّ وهو الإشراف والإدارة للمشافي والعيادات الطبية. اكتسبت خبرات جديدة في التعامل مع أناس من كافة الأجناس وتوطّدت علاقتي مع مدينتي الجديدة واللغة الإنكليزية ممّا جعلني أدخل مضمار العمل بكل ثقة وارتياح.

لم يكن اسم جلال يمرّ بشكل عابر لديّ، بقي ذكر اسمه يشكّل لي رغبة في أن أراه مجدّداً. كنت أفسّر هذا على أنه افتقاد لصديق واشتياق للحديث معه.

حتى ظهر مجدداً، عاد من رحلته الطويلة ليستقرّ في مدينتا، صار يقضي معنا أغلب أوقاته. عاد من الخليج أكثر حيوية. رأينا أن الفترة التي قضاها هناك ساعدته على تجاوز ما مرّ به. عاد وحيداً دون شريكة أو حبيبة أو زوجة. كان واضحاً من حديثه أنه لم يجد بعد الشخص المناسب ليعاود الارتباط. لكن تكرار تواجده مؤخراً في جميع لقاءاتنا مع العائلة جدّد أيضاً الأسئلة التي تدور في رأسي، كأنه لم يغب عني فلم تتغير حيرتي في وجوده أو في طريقة كلامه ونظراته تجاهي. حاولت مليّاً إيجاد تفسير منطقي لطريقة حديثه معي وطريقة النظر في عينيّ. حتى أني بدأت أراقب طريقة حديثه مع الأخريات وكيف ينصت إليهنّ لأقارن إن كانت ذات الشيء! لم أصل لنتيجة واضحة ولا إجابات على الأسئلة التي تجول في رأسي. لكني كنت متأكدة أن هناك خيط شفاف يربط بيني وبينه لا يستطيع أحد أن يراه.

الحديث يبدأ عندي وينتهي به. كان النقاش يدور بيننا فقط وإن كان الجميع يشارك فيه كأني لا أرى سواه ولا يرى سواي! كل هذا كان يضفي لوناً مشرقاً على حياتي وسعادة غير مرئية وأيضاً يضيف عبء الأسئلة والتوضيحات المطلوبة. لم أشأ أن أغرق ذاتي بهذه المتاهات، فكنت أغمض عينيّ على أنه

من الأفضل ترك الأمور كما هي دون الانهماك في تفسير ما أشعر به. هل من المطلوب تحديد المسميات وطبيعة العلاقة أو المشاعر؟ من فرض علينا تأطير ما نمرّ به وتسمية الأشياء بمسمّياتها؟ أليست هذه إحدى أسرار البشرية؟

كان لكلّ ما يتملّكني تفسير واحد لم أقبل الاعتراف به. كان شيئاً لم أشعر به من قبل. كل ما عشته في الماضي كان مجرد إعجاب لا أكثر لم يتطوّر، أو أنها مشاعر من طرف واحد لم أعطها الفرصة لأن تتطور. كانت أحلامي مرتبطة بمشاعري وهذا ما جعلني أختار سامي بقلبي وعقلي وكنت مؤمنة أن الحب يجب أن يكون مشروطاً بالظروف التي تساعد على نجاحه لكن هذا الذي يحدث لي الآن لم أعرف ما هو، شعور جديد بالنسبة إلي.

هل هذه هي النزوات أو أزمات العمر التي سمعنا عنها وشاهدناها في الأفلام والمسلسلات أو قرأنا عنها في الكتب والروايات؟ هل هو بحثنا عن التجديد لإشعال فتيل مشاعر مخبوءة؟

كنت أرفض أن أنزل هذه المسمّيات على ما أمرّ به، كما كنت أرفض الاعتراف بأنه شيء حقيقي وواضح. كنت أعلم أن الاعتراف يحتّم عليّ قرارات لا أريد اتّخاذها الآن. لكني باللاشعور بدأت بتأنيب نفسي.

كنت أتعمد بعد ذلك عدم المشاركة في حديث يخوضه أو أن أترك غرفة الجلوس متعمّدة الجلوس في مكان آخر. لم أتعمّد أن يلاحظ هو هذه التغيرات، لم يتغير، بقي كما هو هادئ متّزن. كان من الصعب تجاهل هذا الهدوء، كما من الصعب تجاهل حديث يديره بأسلوبه الجذاب ومعرفته الشاملة. كان معنيّاً جداً بالسياسة التي تخص منطقة بلادنا العربية، ورغم ترعرعه في بلاد المهجر وانصهاره بمجتمعه لم ينس يوماً أنه من تلك الرقعة من الأرض. لم أستطع تجاهل تعقيبه على آخر التطورات في بلدنا عندما قال:

– أحسد جيل آبائنا بكل ما فيه من بساطة وقلّة في وسائل التواصل والانفتاح، فجيلنا الذي ضاق ذرعاً بكل ما يحصل حولنا من حروب وكوارث وبكل ما يحيط بنا من أشرار ووحوش وبكل ما يصل إلينا من وسائل التواصل والقنوات الفضائية لنزداد همّاً فوق همّ وحزناً فوق حزن على كل خبر نسمعه وكل مشهد نراه وكل إنسان نبكيه. أعلم أن جيل آبائنا لم يخلو طبعاً من الحروب والمآسي التي بلا أدنى شك لم تصل إلى ربع ما وصلنا له نحن، لكنها أخبار تصل إلى مسامعهم عبر تلفزات محدودة وصحف قليلة. هذا النعيم أحسدهم عليه، نشرة أخبار واحدة في المساء ومطالعة الجريدة لربع ساعة في الصباح، أما

جيلنا تدور به الأخبار أينما تلفّت وكيفما عاش. نصبح على ما تعجّ به صفحات (الفيس بوك) و(التويتر) وننام على ما تبثّه محطات الأخبار. هل هي كثرة الحروب والمآسي أم هي كثرة الوسائل حولنا؟!

حتى وإن حاولت عبثاً التظاهر بعدم الاكتراث أو الإنصات أبقى تحت سطوة حديثه وتدفقه العفوي الذي يثير الإعجاب.

فيما بعد أصبح الحديث في كل مرة نلتقي مع جلال يدور حول كيفية إيجاد شريكة مناسبة له كونه الآن الأعزب الوحيد ودائماً ما يأخذ الحديث الطابع الفكاهي. لكن ما حصل البارحة كان مختلفاً. حدثته (أمل) زوجة (إياد) الأخ الأكبر لسامي عن إحدى صديقاتها التي تعرف عنه القليل وبأنها معجبة به وقد تكون مناسبة له من نواحٍ عدّة. في تلك اللحظات لا أدري كيف بدت ملامحي أو ردّة فعلي على وجهي. فقد كان دمي في حالة غليان وقد اكتسب وجهي لوناً أحمر وتعالت خفقات قلبي حتى ظننت أن كل من في البيت يسمعها.

كانت هذه المرة الأولى التي قابل فيها جلال الموضوع بجدية واهتمام!

كان عليّ أن أتصرف بكل هدوء وإخفاء لما أنا عليه. لم أجد سوى هاتفي منقذاً لي حتى لا تفضحني رجفة صوتي أو

تشتت نظراتي. حاولت عدم الإنصات للحديث وخاصةً أنه بدأ بجمع المعلومات عنها. أخيراً غادرت الغرفة متحججة بإعداد القهوة. كنت أنتظر أمام ماكينة القهوة بجسدي فقط وأفكاري ترتطم بكل حائط.

أعرف أنه لا يوجد تفسير لكلّ هذا الاضطّراب، لكن فكرة أن يكون جلال مع امرأة أخرى تشعرني بالكآبة!

لم ألحظ كم مرّ من الوقت وهو ينظر إليّ عند باب المطبخ. نبّهني إليه صوت ماكينة القهوة ورائحة القهوة النّفّاذة.

نظر إليّ بابتسامة باردة وبادرني بالسؤال:

– يبدو أنك قد قابلت (شذى) من قبل، فما رأيك؟ هل تجدينها فعلاً مناسبة لي؟

قلت له:

– الحكمة تقتضي ألّا يتأثر قرارك بآراء الآخرين.

– روان لكنك لست من الآخرين.

فاجأتني نبرة صوته وكأنه استعار صوتاً شجيّاً ليرمي بوقع كلماته الحنون على أذني وقلبي معاً. غادر جلال بعدها مباشرة لكن صدى كلماته (روان لكنك لست من الآخرين) ونظرته الأخيرة لم تغادر معه. هل هذا هو التصريح الأول من نوعه بعد كل هذه السنين من الفوضى في الأفكار والإشارات؟

– ماذا عَنَى؟ قالت.

ولم تقصد المغادرة بعدها مباشرة؟

وكما في كل مرة يغادر جلال المجلس تبقى سيرته الحديث الذي يدور بيننا. أخبرتنا (أمل) أنها متأكدة من أن (شذى) اختيار موفق وشريكة مناسبة لجلال، وفوراً بدأت ترسم خطوط اللقاء بين جلال وشذى.

كانت (أمل) من الشخصيات القيادية المتحكمة. نصّبت نفسها منذ سنين عرّاباً لأسرة سامي وإياد ومن حولهم. كانت هي الكنّة القريبة لوالدة سامي وإياد، فقد أعطتها من الامتيازات ما جعلها تتقن هذا الدور. كان من الصعب عليّ المشاركة في الحديث والتّواطؤ مع أمل في خطّتها وكان أيضاً من الصعب ألا أظهر روح التعاون معها وبعض المشاعر المزيّفة.

(3)

هنا انتهينا وهنا بدأنا أيضاً. انتهى الشك وبدأ اليقين. لم يكن بخيطٍ وهميّ. ها قد أقرّ لها بحقيقة مشاعره وتركها تخوض أكبر حرب في حياتها. هل ينتظر جواباً منها أو قراراً؟ أم هي لحظة اعتراف لن يترّتب عليها شيء في المستقبل؟

قد نعيش لسنين طويلة ظانّين أننا سعداء ويحدث أن يظهر لك شخص في حياتك ويقلب موازينها وتنقلب معه مفاهيم السعادة التي تشرّبناها واستسلمنا لها. شخص يشعرنا أن السعادة ليست عكس التعاسة، يفتح أعيننا على السعادة التي تشبه الموسيقا الصاخبة والهادئة معاً لتملأ حياتنا إيقاعاً وتجعلنا نحلّق في الخيال ونزداد جمالاً وتألّقاً وتصبح ابتساماتنا طاقة تضيء مدارات حولنا.

الآن وقد مرّ أسبوع كامل على ذلك اللقاء وتلك القبلة. سيطرت تلك اللحظات على تفكيرها لكنها حاولت أن تبدو طبيعية في عملها وفي بيتها مع زوجها وابنتيها.

راودتها فكرة الاتصال به أو كتابة رسالة نصية له، لكنها لم تمتلك تلك الشجاعة. كان خوفها أن تفسر هذه الخطوة بأنه إقرار لهذه العلاقة والمشاعر. كانت أيضاً تنتظر شيئاً ما يحدث لكن غيابه أربكها وأراحها في آن واحد!

قطع شرودها رنين هاتفها ليعلمها بتلقي رسالة عن طريق (الفيس بوك): «بينما لا يرى العقل إلا الحدود، يكشف الحب دائماً الطرق السرية». لم تمنع نفسها من ابتسامة الرضا وبدون تفكير أجابت:

– عندما تمنحنا الحياة فرصة للحب، فرصة للسعادة، هل من الغباء تحويل هذه الفرصة إلى مجرد اختبار لنختار المضيّ قدماً أو التّنازل عنها؟

أجابها:

– إن كان سؤالك يخصّني فأنا أمام أعظم فرصة وهبتني إيّاها الحياة إلى الآن وأرفض اعتبارها اختباراً أو خياراً من الخيارات التي لا تتساوى بنظري مع خيار آخر في الحياة. وإن كان سؤالك لذاتك فأنا أولاً لا أرفض أن أكون خياراً لكني أرفض أن تعاقبي نفسك بعدم التفكير في هذه الفرصة. الحب في بعض الأحيان كما يحتاج إلى التضحية يحتاج أيضاً إلى الأنانية. الأنانية في أيامنا هذه لم تعد صفة قبيحة بل أصبحت مطلباً للروح! سلبتنا الحروب والأوجاع ومصائب دهرنا السلام حولنا فأصبح السلام الداخلي كنزاً مرتبطاً بالأنانية.

الأنانية! بقي صدى هذه الكلمة يتردد في ذهنها. بحثت في أعماق نفسها عن أثر هذه الكلمة. هل كانت في يوم من الأيام

أنانية في قراراتها؟ هل كانت أنانية عندما كانت ترفض أن تدرس مع صديقتها المفضلة حتى لا تهدر وقتها بشرح المسائل الصعبة والإجابة على أسئلتها الكثيرة؟ كانت دائمة التحجج أن والدتها لا تسمح لها بالدراسة مع الأصدقاء. هل كانت أنانية عندما رفضت حب ابن الجيران عندما كانت في مقتبل العمر لأنه لا يتمتع بالوسامة والأناقة في اختيار ملابسه؟ لم تضعها الحياة من قبل أمام مفترق طرق صعب ولم تجبرها من قبل أن تكون أنانية في ظرف حقيقي.

اختفت بعدها وتقصدت ألا تجيب على آخر رسالة أرسلها عندما سألها:

– هل من لقاء قريب يجمعنا؟

كانت (أمل) جادّة فيما يخص جلال وشذى، اتصلت بي لتخبرني أنها ستقيم حفل عشاء وتدعو شذى وأخاها وبالطبع جلال سيكون موجوداً. كيف للسان أن ينطق بكلمات لم تصدر عن العقل؟!

– كم هي فكرة جميلة يا أمل وكم أنت رائعة في هذه الأمور.

لم يكن عقلي يستوعب ما نطق به لساني وقلبي كان في مكان آخر يشيّع حباً لم يبتدئ. كانت تخبرني بما يتوجب عليها

من تحضيرات وأصناف الطعام والحلويات التي اختارتها، وفي نهاية المكالمة علقت أنها اقتصرت الدعوة على العائلة وجلال وعائلة شذى، كانت تريد لجلال أن يرى وجهاً جديداً واحداً فتصبح فرصة التّلاقي والحديث بينهما أكبر وبالتالي فرصة للتّلاقي الروحي. في تلك اللحظات كنت أتساءل: «ماذا لو كانت شذى ملائمة لجلال فعلاً؟»

التقت بها عدة مرات في مناسبات اجتماعية. هي على درجة مقبولة من الجمال وتتمتّع بقدر كبير من الجاذبية والحضور والأناقة. وفي اللّاوعي دخلت مع شذى في مقارنة غير مجدية. ماذا لو أعجب جلال بها؟ هناك دائماً سحر خاص لأول لقاء مع وجه نسائي جديد. اعتصر قلبها حزناً لأنها ستكون هناك أيضاً تراقب بداية قصة جديدة. شعرت بالتعاسة وهي تتخيل هذا المشهد.

عادت لتطرده من خيالها، فلو كان جلال راغباً بالزواج، لن ينتظر أحداً ليساعده لأن هناك الكثير من الفتيات اللاتي يُحطن به في عمله وفي محيط أصدقائه وعلاقاته. راودتها فكرة أخرى؛ ربما سيكون من الأفضل لكليهما أن يلتقي جلال بشذى فيعجب بها فهي بكل المقاييس تصلح لأن تكون زوجة المستقبل، لن يصعب عليه أن يتخلص من مشاعره تجاهها ويحوّلها نحو

شخص مناسب له أكثر وبدون أي معوّقات. هل تشجعه على هذه الفكرة لتضمن لنفسها الأمان وعدم المضيّ أكثر في علاقة لا ماهية لها؟! سيتحطم قلبها قليلاً، سيعتريها الغضب عندما تلتقي بهما معاً وستتحكم بمشاعر الغيرة عليه ومنها، لكنها تكون قد اتخذت قراراً سليماً لكليهما.

ليلتها أرسل جلال رسالة نصية:

– عشاء في منزل إياد وأمل السبت المقبل؟

– نعم، أخبرتني أمل أنها تنوي إقامة عشاء للعائلة.

– وهل ستدعو شذى أيضاً؟

– ذاكرة قوية للأسماء!

– لا أعلم بالتحديد ستكون أم لا، هل أخبرتك أمل عن دعوتها؟

– لا لم تقم بذكرها لكنها أصرت على حضوري قبل وقت الدعوة لأن (يزن) ابنهما يريد بعض المساعدة في وظائف الرياضيات.

– هذا جيد.

– سيكون من اللباقة تلبية الدعوة وإلا فإنّ أمل ستصاب بخيبة أمل.

أجبته وأطفأتُ هاتفي المحمول. لم أرد أن أرى أي رسائل

أخرى لحظتها. قررت الابتعاد عن هاتفي والانشغال بالقراءة قليلاً. ربما هذا ما أحتاجه الآن، حمام ساخن وكتاب يحملني بعيداً عن الواقع وبعيداً عن جلال، عالم وهمي لا يحمل بين طيّاته أي أسئلة أو متاهات.

الروايات ذلك العالم الجميل الذي تعرفت عليه منذ أيام الدراسة الثانوية. كانت قارئة نهمة، كتاب يتبعه كتاب، روايات وشخصيات وأحداث تأخذها من ملل ورتابة أيام الصيف الطويلة لتفتح لها مغارة علي بابا من الكنوز والجواهر. كان جلال هو من أعادها مرة أخرى لعالم الكتب والقراءة فحديثهما الدائم عن الكتب جعلها تقرأ مجدداً. تعود (للكلاسيكيات) وتبحث عن الكتّاب الجدد، ربما في أعماقها أرادت أن تبهره بثقافتها وبكمية الكتب التي تعرفت عليها، أو ربما لتتواطأ معه دائماً في حديث مشترك. حاول إقناعها أن تقرأ الروايات الإنكليزية باللغة الإنكليزية وحاولت مراراً أن تقنعه أن يقرأ الأدب العربي باللغة الأم لأنها تزيد من مفرداته التي بدأ بنسيانها عندما طغت اللغة الإنكليزية على يومه. أصبحت الكتب هروبها اللذيذ من الواقع والروتين والحياة النّمطيّة. حياتها بعيداً عن الكتب عبارة عن دوائر داخل دوائر من الأعمال الرتيبة والأفكار السخيفة حتى وعندما بدأت بالدراسة في الولايات المتحدة لم تضع الرواية جانباً. لكن في

هذه المرة بالذات لم تنجح الكتب في إبعادها عن التفكير بجلال. ابتدعت كل فنون الهروب لكنها خسرت. كانت قصص الحب بكل سطوتها وجبروتها تعيدها لجلال. كانت تعيدها إليه بأنفاس البطلة الحالمة والعاشقة المجنونة. تعيدها بعشق أكبر ورغبة أشد. تعيدها بدقّات قلب المراهقة التي لم يطرق الحب يوماً بابها. تعيدها أيضاً بألم الضمير وعتاب العقل والوجع السري الذي لم يطّلع عليه أحد. هذا السر الذي بينها وبين أبطال الروايات التي تارة تطمئنها بأنها حرة وسعيدة، وتارة تحمل لها عصا المؤنّب الذي يلعب دور القاضي والجلّاد لأن ما ترتكبه هو جريمة وكل ما تشعر به هو ذنب لا يغتفر.

هل هي إذاً حالة تربط بين حالتين؟ حالة الهروب من جلال والهروب إلى عالم الروايات! هل جميع الكتّاب والروائيين عشّاق؟ كيف يستحضرون هذه المشاعر ويضيفون هذا الألق على كتبهم وأبطال رواياتهم إن لم يكونوا حتى النخاع عاشقين!

لم يأت جلال يومها. كانت (أمل) على شفا الانفجار غضباً منه. لم تعتد أن يفشل أحد مخططاتها. كان مشروعها أكثر ما يكون مشروع جلال وشذى. من جانبي ادّعيت أيضاً غضبي منه لأحاول تهدئتها. حاولت جاهدة أن أخفي ابتسامتي وفرحتي. تعذّر يومها بأن شيئاً طارئاً حدث في العمل وعليه أن يلازم

المكتب. لم أستطع الانتظار حتى العودة إلى البيت لأراسله. اختفيت في حمام الضيوف وأرسلت له:

– عمل في المكتب في عطلة نهاية الأسبوع!

– الشيء الوحيد الذي أفتقده هو وجهكِ، ندمت كيف أضعتُ فرصة لقائك.

– ولقاء شذى أيضاً؟!

– روان! ستكونين دائماً في المنتصف بيني وبين أي فتاة، لا أخفيك سراً فقد كان هناك بعض المحاولات للارتباط بعد انفصالي عن (ليز) لكن في كل مرة كنت ألقاك فيها، كنت أغادر ولا يغادرني وجهك مطبوعاً في مخيلتي ورنة صوتك تلازمني طوال الوقت. أيقنت حينها أن ثمة شيئاً قوياً يدفعني ويبقيني حيث أنتِ. أعرف أن الشكوك ما تزال تحاصرك حول مشاعري واعترافاتي وأقدّر هذا. وطالما أنا متأكد من مشاعري، لا يعنيني أن أبقى بلا شريك لأنك ستبقين في المنتصف بيني وبين أي امرأة أخرى وأنا سعيد بهذا الانتصاف.

كعادتي تركت رسائله دون ردّ وغادرت حمام الضيوف لأنضمّ إلى العائلة وشذى محاولة ألا أبدي أي انفعالات لا تفسير لها.

إذاً هي ركيزة أخرى يرسخها ليؤكد لها صدق مشاعره

وصدق ما قد يقوم به في المستقبل. بقيت كلماته ملازمة لها طوال الوقت وحتى عندما خلدت إلى فراشها لم تستطع النوم. شعرت ليلتها أنها بحاجة لرؤيته، لتتأمل وجهه وتلمسه. كان صدى هذه الكلمات يهتف في أذنيها بنبرة صوته حتى وإن كانت كلمات مكتوبة. أدخلها عنوة في حالة عشق معقدة ووضعها في المنتصف. حمّلها مسؤولية قلبه ولم يطالبها بعد بشيء. عاشق قدّيس أم عاشق وغد؟ درس خوالجها وسكناتها وحركاتها فتمكن من فريسته وأطبق عليها. هل سيبقى العقل المحرك الأول لها وله؟ لكن إلى متى؟ وماذا لو تعب القلب واستسلم؟

الآن، نعم الآن، هل عليها أن تضع جلال وسامي في ميزان واحد وفي مقارنة واحدة؟ هل ينبغي عليها أن تبحث عن الجوانب السلبية والإيجابية عند كل منهما؟ هل هي مكيدة هيّأها لها القدر؟ أم هي عطيّة مميزة خصّها بها القدر؟ هل تحسب نفسها محظوظة؟ فها هي الآن مخيّرة بين طريقين ومقياس السعادة فيهما مختلف، أو ربما لا يترتب عليها الاختيار إن أرادت أن تمضي قدماً في عالمين مختلفين يسيران معاً في خطّين متوازيين!

كثرت في الآونة الأخيرة قصص مماثلة، تبدّلت القيم عند الناس فأصبح غير الممكن في الماضي جائزاً الآن وإن بقيت المسمّيات نفسها وإطلاق الأحكام ذاته، لكن الفرق أن المجتمع

اعتادها أكثر الآن وبدأ باحتواء هذه الأمزجة من العلاقات. ولكثرة أهوال الحياة من حولنا، أصبحت ذاكرتنا شبه آنيّة فالذي يحدث ضجة اليوم يندثر غداً لعظمة قصة أخرى تحصل. لا تدري كيف قادتها أفكارها إلى كل هذه التّشعّبات والمتاهات. هدأت نفسها فهناك دائماً حلّ، طالما يوجد خيار الانفصال الهادئ تحت أي ذريعة أو بدون سبب واضح. فمن ذروة استحالة الوضع ورفض الآتي إلى إمكانية انتصار مشاعرها لجلال ليعيشا معاً قصة تشبه الكثير من القصص ولا تشبه القصص أيضاً. كان في قلبها وعقلها أصوات شديدة الدّوي، لكن توجب عليها أن تمارس حياتها بشكل طبيعي. قررت أن تبعد جلال عن أفكارها فاتفقت مع صديقاتها على اللقاء مساءً. تمنّت لو تستطيع ائتمان إحداهنّ على سرّها كما نرى دائماً في المسلسلات أو الأفلام، تطلعها على ما يجول في خاطرها من أفكار وهواجس، ربما ساعدتها هذه الصديقة في وضع حدٍّ للقصة حتى قبل أن تبدأ. لكن الحياة علّمتها منذ الصغر أن هناك أسراراً قابلة للإفصاح عنها وأسراراً غير قابلة مهما وصلت الثقة بين الطرفين. كانت هذه إحدى الركائز التي أرسَتها أمها في عقلها. زرعت فيها أن السر لا يحكى إلا للأم. وثقت بما قالته أمها فأطلعتها في إحدى المرات أيام الدراسة الثانوية عن شاب وسيم يلاحقها من المدرسة للبيت. كانت فرحة باهتمامه فأطلعت

أمها وأخبرتها عن هذا الشاب. بدت الأم متفهمة أول الأمر ولم تبدي أي ردة فعل غاضبة أثناءها لكنها دفعت ثمناً باهظاً لبوح هذا السر لأمها التي وضعت لها قيوداً للخروج من المنزل! كانت تلاحقها بأسئلتها، وتتعمّد في كثير من المرّات السير معها إلى المدرسة، ومنذ ذلك الوقت احتفظت بأغلب أسرارها لنفسها. كانت بحاجة لهذا اللقاء مع صديقاتها وبحاجة لأن تشعر بأنها تنتمي إلى هؤلاء الأشخاص أو بالأحرى إلى نساء يشبهنها في نمط حياتهن، اهتماماتهن وأحاديثهن، وحتى مشاعرهن. قررت أن تبعد جلال عن أفكارها وتستمع معهن بهذه السهرة التي تتحول تلقائياً إلى أحاديث عن الأطفال، التربية والمدارس. كانت أحاديث تخلو من الحب والحديث عن المشاعر. كانت تنصت إليهن وفي عقلها تجول أسئلة: هل فعلاً هؤلاء النسوة سعيدات في حياتهن؟ هل هن راضيات بهذا النمط من الحياة؟ إن جلّ همّهن هو ما تحمله لهن الحياة الاجتماعية من دعوات العشاء والحفلات. كانت إحداهن تثور ثائرتها إن لم تقم أخرى بدعوتها إلى إحدى المناسبات. كانت قد تظهر من المشاعر والحزن والغضب ما يكفي لاقتلاع شجرة من مكانها. هل كانت ستبدي مشاعر حزن أو غضب إن واجهت واقعها بأنها تعيش مع زوجها حياة رتيبة خالية من المشاعر أو الإثارة؟ هي علاقة جسد فقط ماتت فيه الرغبة وبقيت فيه الغريزة.

هل غريزة التواجد الاجتماعي أهم من غريزة التواجد الروحي؟ وخطأ مَن هذا؟ هل هو خطأ نساء يقضين الجزء الأكبر من يومهن في الحديث مع صديقاتهن أو الخروج مع صديقاتهن أو تدبير المكائد لصديقاتهن أو لعب دور الضحية نتيجة تصرفات صديقاتهن؟ كانت ترى هذا جليّاً. عانت منه عندما بدأت تتوغل أكثر في العلاقات الاجتماعية. كادت أن تنجرف معهن إلى هذا الوادي. أنقذتها الجامعة والدراسة لساعات طويلة والعمل فيما بعد. لكنها بقيت بحاجة للبقاء على تواصل معهن بين الحين والحين، هي بحاجة إلى شيء ترفيهي ووقت جميل تقضيه معهن بعيداً عن المنزل والمسؤوليات والعمل رغم أنها لا تشبههن كثيراً. عرفت هذا منذ البداية عندما كانت تستمع إلى أحاديثهن، لم يمثل الزوج يوماً لإحداهن دور العاشق أو الحبيب. كان يتلخص دوره إما (بفانوس) علي بابا لتلبية طلبات إحداهن الشخصية والهامة لإبرازها اجتماعياً وبالطبع تلبية طلبات البيت والأولاد، أو أن يكون الزوج ذلك العدو اللدود الذي تدور بينهما حرب باردة طويلة الأمد، وفي الحالتين فإن علاقة الجسد إما أن تكون أو لا تكون. لم تكن علاقتها بسامي تشبه علاقات الأخريات بأزواجهن. كانت علاقة تخلو من الإثارة والمغامرة، لكنها لم تخلو من المشاعر والرغبة.

(4)

لم يكن الاستسلام إحدى صفات أمل. بقيت تحدثني بالموضوع وبأنها ستجد فرصة أخرى للقاء شذى بجلال حتى وإن اضطرّت أن تحدث جلال عن شذى بشكل جدّي وصريح وتطلب منه لقاءها للتعارف. أحسستُ للحظة أن شذى فاتحت أمل بشأن جلال وحتى خُيّل لي أنها ترجّتها لإتمام هذه الصفقة، فنقمتُ تلقائياً على شذى وكرهت سيرتها.

اللافت في الأمر أن جلال كان على دراية بطبع أمل وأنها لن تكلّ من محاولاتها فضيع عليها فرصة أن تجمعهما معاً في سهرة رأس السنة في منزلها كما كان متعارفاً عليه كل سنة. سبقها بخطوة ليوجه الدعوة لنا جميعاً لقضاء سهرة رأس السنة في منزله الجديد الذي انتهى حديثاً من وضع اللمسات الأخيرة على الأثاث و(الديكور). علم مسبقاً أن أمل ستعدّ العدّة مجدداً لخلق جو لطيف للقائه بشذى، لم تتمكن أمل أو أحد من العائلة رفض الدعوة لاسيّما أنها المرة الأولى التي سنزور فيها جلال بعد انفصاله عن (ليز).

لم تكن فكرة زيارة جلال في منزله بالأمر السهل عليّ، شعور غريب تملّكني. كنت في أعماقي أيضاً سعيدة لأني سأرى

جلال الرجل العازب في منزله، سأتمكن من رصد تفاصيل أكثر تخصّصه بينما يلعب هو دور المضيف. كيف سيتصرف؟ هل سيكون على طبيعته؟ هل سيخصّني بنظرات خاصة وإيماءات معينة؟ ربما لن يكون الوضع مريباً على الإطلاق فاللقاء ذاته يتكرر تقريباً كل أسبوع، لا فرق إن كان في منزله أو أي منزل آخر. لازمني التّشتّت لأيام حتى أني فكرت بإقناع سامي بالاعتذار عن الذهاب والاحتفال مع الأصدقاء في مكان عام، لكن كنت متأكدة من رفضه للاقتراح.

في صباح آخر يوم من السنة أرسل جلال لي رسالة نصية:

– صباح الخير، لا أستطيع الانتظار حتى يحلّ المساء وأراكِ لتضيء عيناك المكان ويصل سحر صوتك إلى مسامعي فيضفي جمالاً خاصاً على أمسيتي وتكون بشرى سعيدة أنهي بها عامي وأبدأ عاماً جديداً.

– إلى لقاء قريب وعام جديد.

لم أكن أتوقع تهنئة أو رسالة منه صباحاً، جعلتني كلماته بقمة السعادة وبغاية الشوق للقياه. شكرته سرّاً لأننا سنقضي هذه الليلة المميزة سوياً. نودّع عاماً حمل لي مع نهايته أكبر مفاجأة في حياتي ولا أدري ماذا سيحمل لي العام الجديد من مفاجآت وتغيّرات، حتى وإن تخلّيت عن شتاتي وبحثت في أعماقي عن

أمنية أطلبها لعامي الجديد. ماذا يمكن أن تكون أمنيتي؟ جلال؟! وكيف السبيل؟ وما الثمن؟

وقفت أمام مرآتي أفكر وأبحث عن إجابة لكن دون جدوى، فقرّرت ترك التفكير بشأن أمنيتي لأفكر بحفلة الليلة وكيف سأستعد وماذا أرتدي؟ هل أختار شيئاً مميزاً يليق بزيارتي الأولى لمنزل جلال أو أختار شيئاً عادياً مناسباً لسهرة عائلية بمناسبة رأس السنة. هل يتوقّع جلال أن أكون نجمة الأمسية وماذا لو خيّبت ظنّه ولم أكن على درجة فائقة من الإبهار؟

فكّرتْ مليّاً أنه ما يزال هناك وقت كافٍ للتسوق وانتقاء ثوب جديد للمناسبة والتوقف عند مركز التجميل لاختيار تسريحة مميزة لشعرها تملك الدافع والوقت لفعل كل هذا لكنها لا تملك الشجاعة، شجاعة الإقرار أنها تريد أن تتألق الليلة من أجل جلال. لا تملك أمنية واضحة ولا تملك شجاعة الاعتراف بمشاعرها ولا تملك رؤيةً لما سيحدث غداً. تملك فقط بحراً من الحيرة تستمتع به قليلاً وتتخبّط به قليلاً. اختارتْ الذهاب للحفل دون تكلّف ظاهر، ارتدت فستاناً زمردياً أخضر كانت قد ارتدته من قبل وسمعت إطراءات جميلة بخصوصه فتفاءلت به. وضعت زينتها البسيطة وصفّفت شعرها كما تصففه عادةً للمناسبات.

استقبلنا جلال عند الباب، بدى كعادته جذاباً وهادئاً. مشى

معنا حتى وصلنا إلى قاعة الجلوس حيث يجلس من سبقنا من الضيوف. استأذن مني وطلب من سامي مرافقته للطابق العلوي، أراد أن يريه غرفة السينما وشاشة التلفاز العملاق. كان لدى جلال وسامي شغف مشترك في اقتناء أحدث التقنيات وبالأخص أجهزة التلفاز. لم يكن منزل جلال يشبه المنزل الأمريكي التقليدي، اختار تصاميم عصرية وغلب اللونان الأسود والأبيض والأسطح الرخامية اللامعة، كانت الإنارة مبهرة تنبعث من الأسقف والجدران وحتى الأرضيات، وأكثر ما يشدّ الانتباه تلك القطع الفنية واللوحات والتماثيل. كان من الواضح أنها اختيرت بدقة عالية وخبرة مختصّين بالتصميم الداخلي لتوضع كل قطعة في مكان تبرز جماليتها وتضفي رقيّاً وذوقاً رفيعاً للمنزل. كانت الأجواء مريحة للغاية ولاسيما بوجود (رهام) أخت سامي التي قدمت لقضاء العطلة وأيضاً وجود أصدقاء مشتركين بين عائلتنا وجلال. استعان جلال بشركة لتنظيم الحفلات فأرسلت طاقماً للإشراف على تحضير الطعام وتقديمه وخدمة الضيوف فبدى عليه الارتياح مع ضيوفه. كنت أسترق نظرات خاطفة إليه وأخشى النظر مباشرةً في عينيه، تحاشى هو أيضاً الانفراد بحديث معي أو النظر إليّ مباشرةً. تخلّى جلال في هذه الليلة عن جدّيّته فكان طوال الوقت مرحاً وضحوكاً، ودون أن يدري

مدّني بالراحة المطلقة للاستمتاع بأمسيتي. طلب من الجميع أن يشارك بلعبة (الكاريوكي)، أضفت هذه اللعبة مزيداً من البهجة والضحك بين الكبار والصغار. اقترحت أمل أن نتشارك أمانينا قبل استقبال العام الجديد. كان الجميع يأمل أن تزول الغمّة عن سوريا قريباً وتعود الأوضاع إلى ما كانت عليه ولم تخلو أيضاً جعبة الأماني من الثراء الفاحش والطائرة الخاصة والوزن المثالي والرشاقة. اتجهت الأنظار إلى جلال عندما سئل عن أمنيته الخاصة بالعام الجديد. تسارعت دقات قلبي كثيراً. خفت أن يكون جلال على درجة من الجنون أو الثقة بنفسه للبوح بشيء يريده بشدة ولا يدرك عواقبه. أعرف جلال جيداً، أعرف حكمته واتزانه، لكني في هذه اللحظة لم أدري لماذا أصابني كل هذا الذعر من إجابته. هدّأت نفسي مع كلماته:

– أليس ما يتمناه المرء بشدة لا يبوح به؟! لكن أستطيع القول أني أتمنى أن تبقى سعادتي الحالية مرافقة لي في عامي الجديد.

ودون أن يسمح لأحد باستجوابه لأخذ تفاصيل أكثر، أنهى الحديث عندما نهض من كرسيه وأخبر الأطفال أن هناك مفاجأة تنتظرهم، خرجنا جميعاً لحديقة المنزل لنتفاجأ بشاب متخصص بعروض الألعاب النارية. قفز الجميع كباراً وصغاراً عند مشاهدة

الألعاب النارية واستقبال العام الجديد. كان سامي يقف خلفي ونحن ننظر للسماء فرحين فرحة الأطفال بالأضواء المتلألئة والأصوات المنتشرة بالأرجاء.

دخلت عامي الجديد بتبادل القبل والأحضان مع سامي وطفلتي أولاً ثم العائلة والأصدقاء. لم أجرؤ على الاقتراب من جلال بينما بقي هو يجلس برفقة والدة سامي ويحدّثها. كانت ليلة لا تنسى وذكريات ستعيش لوقت طويل مع الكبار والصغار، غادرنا جميعاً منزل جلال بذات الوقت بعد أن أثنينا عليه وأبدينا شكرنا وأشدنا جميعاً بكرم ضيافته ولباقته.

وصلتني رسالة منه بعد ساعة من مغادرتنا لمنزله:

– عام جميل يا سعادتي الحالية والمستقبلية، يا أمنيتي الوحيدة.

وانتهت هذه السنة بحدث غيّر حياتي، وها أنا أنتظر السنة الجديدة ولا أعرف ماذا ينتظرني.

طلب لقاءها مراراً وفي كل مرة كانت تتحجج أنها غير جاهزة بعد. فاجأها في العمل. ابتسم حين رأته وقال لها:

– أعرف أن الدوام سينتهي بعد نصف ساعة، ولا تزال أمامنا ساعتان لغروب الشمس للتّمتع بنزهة سريعة وقريبة من هنا.

اصطحبها بسيارته من مكان عملها بعد الظهيرة إلى حديقة عامة غير بعيدة. قال لها:

– ليس هناك أجمل من نزهة على عشب نديّ في يوم جميل كهذا وطقس مثالي، ليس مألوفاً على مدينتنا القاسية في طقسها.

افترش حصيراً صغيراً على العشب ليجلسا عليه. كان ينظر إليها بعينين تشعّان رغبة وشوقاً. هل كانت عيناها تعكسان ذات الشيء؟ كان حديثهما عاماً معظم الوقت، يتطرقان أحياناً إلى مواقف حصلت لهما في الماضي وعن ردة فعل كل منهما عن الآخر وبالخصوص هو. اعترف لها أنه كان يتقصد معارضتها ليثير غضبها ويتلون وجها بالأحمر. اعترف أيضاً أن هذه اللحظات أكثر اللحظات إثارة له. كان يتمنى لو يستطيع تقبيلها في كل مرة تغضب من حوار يدور بينهما. ضحكت كثيراً واعترفت له أنها كانت تنعته بأبشع الصفات في سرّها، تنعته بالمغرور المتشبّث برأيه الخاطئ. انتهى اللقاء دون عناق أو لقاء الشفاه. كانت تقفز عن الأرض في طريق عودتها إلى المنزل، كما لو أنها مراهقة من زمن (الخمسينيات) بثوب كالأميرات، وفي كل قفزة رقصة للحب والحياة ولم تفارق الابتسامة وجهها ذاك اليوم.

توالت اللقاءات بعد ذلك، لقاءات سريعة لا تتعدى الساعة في أماكن عامة ليست على مرأى من العامة وليست بالمهجورة، فقد كانت لا تتقبّل فكرة أن يكون اللقاء كما لو أنهما لصّان. كانت تبدو عليه السعادة في كل مرة. لم يتقصد ولو لمرة أن يقترب منها، ترى ذلك في عينيه ولا تراه في أفعاله، هذا ما جعلها تستكين لفكرة لقائه، بالرغم من رغبتها في تقبيله من جديد، فتندم أنها لم تعطه أي إيحاء لتقبيلها. تعزم أمرها أن تتحلى بالشجاعة في اللقاء المقبل لتختبر ذلك الشعور مرة أخرى لكن شيئاً ما يجعلها تتراجع عن الفكرة.

(5)

مرض والدها ورفض العلاج فتدهورت حالته. كان عليها السفر إلى دمشق. أخبرها أخوها مروان أن حالته حرجة ومن واجبه أن يخبرها. لم يكن قرار السفر بالخطوة السهلة بالنسبة لها وخاصة أنها ستكون المرة الأولى التي تزور فيها دمشق منذ اندلاع الأحداث الأخيرة ولم تكن مهمتها سهلة أيضاً بإقناع سامي بضرورة السفر لكنها لن تسامح نفسها إن غادر والدها الحياة ولم تره، ولن تسامح سامي إذا اعترض على سفرها.

عندما علمت بمرض والدها، كانت صدمة كبيرة لها فنحن دائماً نستبعد أن يحلّ مكروه بأحد يخصّنا وإن كنّا نرى هذا ونشهده كل يوم مع أشخاص حولنا لكن تبقى الصدمة كبيرة عندما يحاصر الخطر أو المرض أهلينا أو أحداً من أحبّائنا.

سقط اسم جلال سهواً من أجندتها لعدة أيام. كانت مغيّبة أثناءها تقرأ رسائله دون أن تردّ. سيطرت على ذهنها إجراءات السفر والحجوزات ورهبة العودة إلى دمشق وترك عائلتها وابنتيها الصغيرتين. لكن فرط الشوق لأبيها ورؤيته كان أكبر هذه المشاعر اتساعاً وسيطرةً عليها.

علم جلال من سامي بمرض أبيها خلال لقاء عابر.

أرسل لها:

– أعلم إنك لست بخير. أتمنى لو أستطيع أن أكون معك، أساندك. أرجوك أبقيني على تواصل معك، دعائي بالشفاء العاجل لوالدك.

– شكراً على سؤالك، اعذرني إن لم أرد على رسائلك، لست على ما يرام. أنا في دوامة مشاعر وتعتصرني الأفكار.

– أتنوين السفر حقاً؟

– نعم أرتب الأمر بأسرع وقت ممكن.

– لوحدك؟

– نعم، لن يتمكن سامي من مرافقتي، ستكون مخاطرة إن رافقني والبنتان في هذه الأوقات دون ترتيبات مسبقة.

– أوليست مجازفة أن تسافري لوحدك؟

– للأسف هناك طرق علينا المضيّ فيها وحدنا.

لم تستطع النوم ليلة السفر فالسفر بحدّ ذاته يربكها ويبقيها شديدة التوتر.

اقتضبت في وداع سامي وحضنت ابنتيها بشدّة واستمدّت منهما الطاقة لرحلتها الطويلة الحزينة. كانت هذه المرة الأولى التي تسافر فيها وحدها دون سامي والطفلتين. أقنعت نفسها أنها ستغيب لعشرة أيام لا أكثر فليس هناك من داع للتوتر والقلق

ووداع ثري بالدموع والمشاعر حتى وإن كانت ستقطع نصف الكرة الأرضية.

كان وجه أبيها ما يبقيها قوية لتتابع رحلتها المفاجئة. ما كان الطريق بين بيروت ودمشق صعباً كما أنه لم يكن سلساً أيضاً. دخلت دمشق في سيارة أجرة مع ساعات الصباح الأولى. بدا وجه دمشق حزيناً. أذهلها تهالك المباني والشوارع. لم تكن ذات المدينة التي تركتها منذ بضعة سنين. كانت دمشق التي تركتها بمثابة دفء كل إنسان مهما كان غنياً أو فقيراً، متعبداً أو متحرراً، عاشقاً أو (روتينياً). تذكرت أفران الشام ورائحتها التي تعبق بالمكان والباعة المتجولين والمستلقين أمام بضائعهم كيف يضيفون للمدينة حياةً وصخباً، كذلك النوافذ المطلّة على شوارعها، بعضها مفتوح والآخر مغلق على ذاته. أصبحت (شامنا) الآن صباحات تلو صباحات والمأساة مستمرة. بلاد تحت وطأة الموت والحرب والخوف. هناك حيث الحياة تُستمد من الأحلام القصيرة، تتبع من آبار فقيرة وتصبّ في جداول صغيرة، وأناس يقيمون علاقات مع أشباح المدينة وظلال الموت، يسرقون من العدم والظلام قبلات سريعة وابتسامات واهنة علّها تكون في يوم من الأيام الذكرى الوحيدة الجميلة لهذه السنوات. تغيرت النظرات على وجوه المارة واختفت ملامح الشباب وبدت علامات

الشيخوخة المبكرة على رجال ونساء لم تتجاوز أعمارهم الثلاثين! أجساد أنهكتها الطوابير ووجوه أنهكتها الدموع والقلق. كانت تعبر الشوارع من خلال نافذة السيارة وتتساءل كيف نغمض أعيننا عن واقع بلادنا ونُقبِل على الحياة في الطرف الآخر بكل ما أوتينا من شراهة وشراسة! هناك مفارقة كبيرة نعيشها ويعيشونها. نخطف من الحياة بعض لحظات ألم لنطّلع على معاناتهم ويخطفون من الحياة بعض لحظات أمل ليعيشوا رفاهيتنا.

لم يتغير منزل العائلة كثيراً عن آخر زيارة منذ عدة سنوات إلا أن طابع الكآبة بدا أكثر على الأثاث والجدران. سألت نفسها عن سرّ هذه الرائحة الغريبة، هل هي رائحة الحرب وقلّة الأوقات السعيدة في البيت أم هي رائحة المرض تنبعث من غرفة نوم أبيها؟ تملّكها إحساس أنها لم تغادر منزل عائلتها قطّ ولم تمرّ أكثر من عشرة سنين على مغادرتها، ربما لأنها تعود لوحدها الآن. كان شعوراً أقرب إلى كونها تركت المنزل في الصباح للذهاب إلى الجامعة وها هي تعود الآن بعد يوم طويل قضته في تلقي المحاضرات والتسكع مع الأصدقاء ومن ثم المواصلات العامة.

كانت أمها وأخوها الكبير (مروان) وأسرته في استقبالها. كانت لحظات غير قابلة للترجمة، ولن تتمكن من وصفها إن

حاولت استرجاعها. ذاك العناق الطويل لأمها وتقبيل جبهة أبيها ويديه وهو مستلقٍ على سريره. بقيت ساعات النهار وطوال الليل هي وعائلتها ملتفّين حول سرير الأب يتسايرون ويضحكون ويسترجعون الذكريات. قضت اليوم التالي في الرد على مكالمات من العائلة والأصدقاء المتبقين في المدينة، يرحبون بها ويبدون سعادتهم بقدومها للاطمئنان على والدها رغم الظروف الصعبة. لم تجد دائماً الكلمات المناسبة للرد عليهم، كيف لهم أن يروا شجاعتها وهم تحملوا أقصى الظروف في الأعوام الماضية. كانوا في حرب مستمرة بين البقاء على قيد الحياة والاستمرار بالحياة أيضاً، الاستمرار بالعمل والدراسة وحتى قضاء الأوقات مع الأصدقاء والعائلة، مجهود جبار ونفوس قوية.

كانت ما تلبث تنهي حديثها مع سامي للاطمئنان على ابنتيها حتى تهرع إلى رسائل جلال للرد عليها. كان شعور غريب يحاصرها بأن عليها أن تطمئن كليهما. ربما هذه فرصة جيدة للتفكير مليّاً أين تقف وإلى أين تسير لاسيّما أن المسافة التي تفصلها عن سامي ذاتها تفصلها عن جلال. بقي جلال في أفكارها طوال الوقت تستحضره في كل موقف أو حديث رغم فقر التواصل بينهما بسبب فرق التوقيت وبطء (الإنترنت) لكنها لم تكن تستاء من ذلك لأنها أرادت أن تقضي وقتها مع أبيها وأمها

وأخيها فهذا وقت ثمين لا يعوض وقد لا يتكرر في المستقبل القريب. تأقلمت بعد يومين مع ظروف الحياة المختلفة في دمشق كالانقطاع المتكرر للكهرباء والتقنين في استخدام المياه. جاء بعض الأقارب لزيارتها وزيارة والدها. كانت الأحاديث المحكية لا تمت بصلة لأحاديث تركتها في الولايات المتحدة، مشاكل وصعوبات الناس في دمشق وسوريا إجمالاً لا تشبه مشاكل تلك البلاد! وضعها الاستماع إليهم في مأزق فلا التعاطف يجدي نفعاً ولا شحذ الهمم والنصائح للتّحلّي بالصبر يجدي أيضاً.

أرادت بعد يومين أن تنزل إلى الشوارع وتتبضّع من سوق الخضار القريب. أرادت أن تتأمل المدينة عن قرب لترى إن هي قادرة على أن تقيم علاقة خاصة مع مدينتها كما في الماضي. لم تكن مهمتها في إقناع والدتها سهلة، كانت عائلتها تتعامل معها كأجنبية أو طفلة لا تجيد الكلام. قالوا لها أن الوضع قد ساء وأن الناس قد تغيرت وستجد صعوبة في التواصل. كان السوق يحتفظ بذات المزيج من الروائح المنعشة للخضروات والفاكهة والأجبان والمخللات. ابتاعت كل ما وقعت عيناها عليه من فاكهة متمنية أن يكون لها نفس الطعم اللذيذ الذي اعتادته، تمنت ألّا تكون الحرب قد أفسدت هذا أيضاً، وفي نهاية مشوارها توقفت عند ذلك الدكان الصغير الذي اعتادت أن تمر به كل يوم أثناء طفولتها

لشراء كل أنواع الحلويات والمثلجات. تعرفت على صاحب الدكان بسرعة، كان ما يزال يحتفظ بذات قسمات الوجه وقبعة الرأس والمئزر الأسود. فرحت عندما وجدته. ذات الشخص وتقريباً ذات الملامح. راق لها أن هناك أشياء من الماضي ما تزال على ما يرام. بالطبع لم يتعرف عليها، ابتسمت وطلبت منه كل شيء يذكرها بأيام مضت، أكياس (الشيبس) والسكاكر والشوكولا المحلية الصنع. ربما لن تستسيغ طعمها الآن لكن فكرة أن تحمل هذه الأشياء بكيس من النايلون لبيتها كما أيام زمان أسعدها.

ذاك المساء قبلت دعوة صديقتها للخروج معاً لاحتساء القهوة. كانت (دعاء) صديقتها من أيام الجامعة. بقيتا على تواصل ضمن فترات متباعدة. اختارت مقهى ليس ببعيد عن المنزل، فالهدف الأول من زيارتها هو البقاء جانب والدها أكبر وقت ممكن كما أنها لم ترغب بالبقاء خارج المنزل لوقت متأخر ليلاً. كانت صديقتها من أجمل الفتيات اللاتي عرفتهن. ما تزال جميلة، لكن بمعايير اليوم من الجمال، الأنف المدبب والخدود المرفوعة والشفاه المنفوخة. كيف لبلد يعاني كل ما يعانيه يستطيع أفراده تحمل تكاليف عمليات التجميل؟!

لم تغادر دعاء دمشق يوماً ولم تتزوج. أخبرتني أنها كانت على علاقة مع زميل لها في العمل وكانا شبه متفقين على

الارتباط الرسمي قبل أن يحدث ما حدث من أهوال وتغيرات. بدأت وعوده بالزواج تتضاءل حتى تلاشت تماماً حين أخبرها أن الهجرة هو الحل له. لم تلمهُ ولم تقف في طريقه، فليس من الذكاء أن تنشىء عائلة في بلد يبدو الغد فيه مظلماً ولا يعد بأي مستقبل. ربما لاحظت نظراتي الفاحصة لملامحها الجديدة، ابتسمت وقالت لي:

– يا عزيزتي فرص الزواج لم تعد كبيرة أو مغرية مثل أيام زمان فما الفائدة من ادّخار المال لشيء قد لا يحصل أو ليوم قد لا يأتي، كما أن الحفاظ على تألقي وجمالي ربما سيزيد فرص زواج قد يأتي متأخراً.

وضحكت.

أجبتها:

– لكنك جميلة من الأساس ولا ينقصك تحديثات (الفيلر والبوتكس).

– أعرف هذا تماماً ولكن عندما أنظر لنفسي في المرآة وأجد أن هناك قواسم جمال مشتركة بيني وبين العالم الخارجي وأني أشبه فتيات نراهنَّ كل يوم من خلال العالم الافتراضي ونساء قدرهن لا يشبه قدر نساء بلادنا، كل هذا يعطيني بعض الرضا وربما القدرة على المضيّ قويةً في هذه الحياة.

فلسفة غريبة تتبعها دعاء لكنها تبدو منطقية لفتاة تعيش ظروفها.

سألتها:

– وهل فقدت الأمل من الحب، أليس هذا بدافع قوي للتمسك بالحياة والجمال؟

أسرّتْ لي أن هناك رجلاً في حياتها لا تعرف طبيعة المشاعر التي تكنّها له، تعرّفت عليه من إحدى صفحات (الفيس بوك) المعنيّة بأخبار المناطق والتطورات. أحسّت بانسجام في الحديث معه عبر خاصية (التشات) وبعد عدة أسابيع اعترف لها أنه متزوج ولديه طفل صغير، لكنه احتاج لشخص غريب أو جديد يدخل حياته ليعطيها بعض الإثارة في أيام سوداء كهذه، لكنه الآن بدأ التعلق بها وأصبح لوجودها معنى أكبر!

– وماذا كان ردك؟

– بصراحة لم أتفاجأ جداً من أمر زواجه. كان لديّ حدس أن هناك شيئاً غامضاً أو غير صحيح لكني لم أكترث. أنا أيضاً بحاجة إلى تلك الإثارة وكلمات الاشتياق والاهتمام.

– أعرف أنه يكذب وستنطفئ الإثارة مع الأيام. أراد من اعترافه بزواجه أن يبرهن لي عن تحول مشاعره إلى مشاعر صادقة وأنني سأقع بفخّ الامتثال لرغباته في المستقبل، أو على

الأقل هكذا أرى الأشياء. ليس لدي أي نية بالاستمرار بعلاقة متعبة تتطلب الكثير من الحذر أو التخطيط. أنهكتنا الحياة خلال مدة قصيرة جداً ولا شيء يستحق العناء.

أخذتني أفكاري منها. هل هذا ما ينقص جلال في يومه، الإثارة؟! هل أنا مجرد إثارة أو تفريغ لمشاعر؟! وهل حقاً قد تنطفئ هذه المشاعر وتختفي الإثارة؟! أعادتني إليها بالسؤال عن أحوالي وعن سامي. ماذا أجيب؟ هل أجيب جواباً منطقياً وتقليدياً؟ بخير، علاقتنا بخير، سامي شخص محب ومخلص وأب مثالي لبنتيه، أم أجيبها عن حيرتي بأن هناك شخصاً آخر ويبدو لي حبّ حياتي واختياراً مثالياً، يحبني بطريقة تشبه الأحلام ومستعد لأي شيء كي نكون معاً؟! اكتفيت أن حياتي معه مثل حياة أي زوجين فيها من الاستقرار والروتين والمسؤوليات ما يجعلنا راضين. حتى وإن أتتني الشجاعة للاعتراف لدعاء ببعض ما أمر به من اختلاط في مشاعري لتسدي لي نصيحة أو تدلني على طريق لا أراه بعيني، سيكون ذلك من غير اللائق احتراماً لمشاعرها وظروفها، فمهما حاولت إظهار تفهمها أو تعاطفها سيكون ذلك قاسياً عليها، صديقتان بذات العمر اختار القدر لهما حياتين مختلفتين، إحداهما تنعم بكل شيء ويزيد عليها رجل كامل الأوصاف يحبها والأخرى لا شيء ينتظرها.

(6)

رحل والدها قبل يوم واحد من موعد عودتها إلى الولايات المتحدة. رحل بهدوء كما عاش حياته كلها، هادئاً وصبوراً، متعته الأزليّة القراءة ولعب (الشطرنج) مع الأصدقاء القدامى. كان والدها من علّمها أهم دروس الحياة، فقد كان قليل الكلام وبعيداً كل البعد عن التنظير أو التدخل فيما لا يعنيه. اكتشفت هذه الصفات عن والدها عندما وقعت إحدى بنات عمها في مأزق، عندما طلبت فسخ الخطوبة قبل أسبوع واحد من الزفاف. قامت الدنيا ولم تقعد. ضاجت العائلة برمتها، البعيد قبل القريب يسدي النصائح ويصدر الأحكام ويثرثر لمجرد الثرثرة. سألته حينها:

– ما رأيك بقرار ابنة أخيك؟

– إنه قراراها وحدها فقط، حياتها وحكمها على الأشخاص والأشياء. فطالما الشخص لم يأتِ إليك طالباً نصيحةً أو رأياً، لا تقحمي نفسك في حياة الآخرين مهما كنتِ مقرّبة. كلٌّ منّا يخوض معارك داخلية وصراعات، وكثرة الثرثرة والتنظير قد تجعله يتوه أكثر، من يحتاج نصيحتك سيعرف الطريق إليك، عدا ذلك لا تسلك ذاك الطريق.

بالطبع لم تسافر في الوقت المحدد لعودتها ورغم صعوبة الإجراءات في ظل الأوضاع الجديدة، مرّ كل شيء بسرعة، إجراءات الدفن ومراسم العزاء. كانت مذهولة بالحالة الغريبة التي يخلّفها موت أحد عزيز، فبينما يعتصر القلب حزناً على الفراق، يبقى العقل يسيّر صاحبه. لم يكن مسموحاً لها أن تحزن هي وأخوها مروان. كان يتوجب عليهما أن يبقيا قويين ليمدّا والدتهما بالسلوان. بقي التماسك والتظاهر بالقوة ملازماً لها حتى وهي بمفردها، فحزنها لم يترجم إلى دموع أبداً، ربما صدمة الموت أقوى من الدموع في بعض الأحيان. كانت بحاجة إلى البكاء المطول لكنها لم تستطع. كانت حاجتها إلى البكاء أشبه بحاجتها إلى البوح بما في خوالجها دون النطق بحرف. كانت تريد ترجمة ما يعتريها من أوجاع وحزن إلى دموع، حتى عندما كان سامي يتصل آخر الليل في أيام العزاء، كانت تبدو صلبة ومتوازنة. كان الحديث شبه تقليدي يواسيها بكلماته ويدعو لوالدها بالرحمة وتجيبه بما تفرضه الحالة من استيعاب وتقبّل رغم بكائها الداخلي.

اختفى جلال في أيام العزاء الثلاثة إذْ لم يرسل لها بأي رسالة تعزية خلالها. كانت تبحث عنه في يومها وتبحث عن اسمه بين المعزّين وتنتظر أن يظهر بين الرسائل النصية على هاتفها. عذرته فربما لا يجيد كلمات العزاء أو لا يجيد التصرف

في هذه المواقف. استيقظت في اليوم التالي لتجد رسالة منه:

– أنا في بيروت، كلميني.

فركت عينيها جيداً وحملقت بشاشة الهاتف لتتأكد مما تقرأ. هل كانت تهيّؤات أم أمنيات؟

– صباح الخير، هل أنت حقاً في بيروت؟ هل أنت في رحلة عمل؟

وانتظرت، تسمّرت أمام اسمه على الشاشة حتى يجيب.

– نعم أنا في بيروت وليست رحلة عمل، جئت من أجلك. سأنتظرك هنا.

اتصلت به.

– ألو روان،...

جاء صوته بعذوبة تحتاج إليها، نطق اسمها وأنساها المكان والزمان. شقّ صوته مسافات البعد ليطبطب عليها ويؤكد اشتياقها له.

– لماذا أتيت؟

– لن تكوني بمفردك مع أحزانك في طريق العودة.

صمتَ طويلاً وصمتُّ بدوري. كانت تصلني أنفاسه الحارة وكانت تصله ربما دموعي المحبوسة.

– روان سأكون معك شئتِ أم أبيتِ. سأنتظرك في بيروت

وسأرتب لكل شيء، أريد بعض المعلومات لكن ليس الآن. خذي وقتك مع عائلتك. حددي الوقت الذي تودين فيه العودة وأخبريني.

استسلمتُ له، هززتُ له رأسي بالموافقة كأنه يراني. كان هذا كل ما أحتاجه، شخص يلقي عليّ الأوامر ويأخذ بيدي فأستجيب.

– حسناً، لم أفكر بعد بالعودة وبالطبع لم ألغِ رحلتي التي فاتتني.

– لا تقلقي، سأرتب كل شيء. اشتقت لك كثيراً، مدينتنا بلا هواء طالما أنك لا تتنفسين هواءها. أراها مظلمة لا لون لها.

– سأكلمك لاحقاً، مع السلامة.

وضعت الهاتف جانباً وجلست على طرف السرير. شعرت أن وزني أصبح أخفّ من ريشة. إصراره في إظهار مشاعره والاعتراف بحبه يبقيني في مأزق طوال الوقت. لا أنكر أن إصراره يجعلني سعيدة ومتلهفة للمزيد. قال لي اشتقت لك وقلت له مع السلامة. أدرك تماماً أني اشتقت له وصوته أشعل نيران الاشتياق أكثر.

أمسكت هاتفي وأرسلت له:

– شكراً لمجيئك، شكراً لصوتك لأنه أخرجني من متاهات سوداء.

جاء رده:

– هل تريدين أن أتابع رحلتي وألقاكِ في دمشق؟

– سيكون هذا ضرب من ضروب الجنون والمخاطرة، أرجوك لا تفعل، لكن لا أخفيك سراً أني أتمنى لو ألقاك في مدينتنا الأم دمشق. أعرف أنك لا تعرف الكثير عنها. أحلم لو جمعنا أنا وأنت (لنقل) عالماً موازياً لعالمنا هذا، ربما عالم من الماضي، تخلق قصة بيننا أيام الدراسة وتشهد حارات دمشق القديمة خطانا، شتاؤها القارس والدافئ بذات الوقت، صيفها المليء بالفوضى والحياة. نمشي في كل شارع ونبتاع أصناف الطعام من كل مكان وتدارينا مقاهيها الصغيرة عن أعين الناس.

رد هو:

– أعلم ما تعنيه دمشق لك. ذاك البريق في عينيك كلّما جئنا على ذكرها. أصارحك الآن في كل مرة تأتي على ذكر دمشق كنت أغار من حبيبٍ عشتِ معه قصة حب عظيمة في الماضي، وجعلك متيّمة بحبّ دمشق.

– شكراً لأنك جعلتني أبتسم وأنا أقرأ كلماتك، ربما سيكون العكس إن تركت حبيباً في دمشق، سيكون من الأفضل أن أتجنب ذكرها لكي أنساه. سيكون من الصعب إدراك ذلك الولاء

والحب لدمشق طالما لم تعش تفاصيل الطفولة والشباب فيها ومع أناسها وقصصها.

سرحتُ بعدما أنهيتُ حديثي معه. ماذا لو كان قدرنا أنا وجلال أن نكون أبناء هذه المنطقة؟ ماذا لو التقينا وأغرمنا ببعض؟ ماذا يكون مصيرنا؟ هل سينتصر الحبّ أو يفشل كما أغلب قصص الحب في بلادي؟ وإن انتصر، هل سيدوم مع معوّقات وأزمات متتالية؟

خالتي التي تزوجت بعد قصة حب عاشتها مع زميلها في الجامعة، أخبرتنا يوماً أنا وابنتها التي تكبرني بعام واحد أن الحب بعد الزواج يتخذ أشكالاً أخرى والوميض الخاطف لا يبقى طويلاً. تختفي الرعشة عند تلامس الأيدي، يتحول إلى شعور بالاستقرار ويصبح الحبيب مصدر الأمان أكثر من أن يكون مصدر الإلهام. لا أدري وقتها إن كانت بطريقة غير مباشرة تحاول أن تحيد نظرنا عن قصص الحب في الجامعة، ربما أرادت لابنتها أو لي أيضاً اختيار مضمون أكثر عن طريق التعارف عن طريق الأهل أو ما يدعى خطبة الأهل و(الصالونات). يبقى الآباء والأمهات غير واثقين من اختياراتنا أو قراراتنا مهما بسطوا أمامنا الثقة، فرغم أنهم خاضوا ذات التجارب فهم يجتهدون دائماً في إبعادنا عن خوض تجارب أو معارك حقيقية في الحياة.

إنها الغريزة الأبوية لحماية صغارهم من كل ما يمكن أن يؤذيهم جسدياً، نفسياً أو عاطفياً. يثقون أكثر باختياراتهم لنا ويرجعون ذلك إلى خبراتهم وباعهم الطويل في معترك الحياة وتكشّف حقيقة الناس أمامهم بصورة أوضح. ورغم كل هذا وكل تفهمي لأسبابهم وغريزتهم المليئة بالحب والخوف، يبقى من الصعب تقبل وجهة نظرهم. وتحديداً بالكلام عن خالتي وزوجها ورغم محاولتها بلفت نظرنا بعيداً عن علاقات الحب، كنتُ دائماً أرى بريقاً في أعينهما هي وزوجها عندما نلتقي. كان هناك تناغم بينهما يصلنا جميعاً ورغم تقدم السنين بهم، كنت أشعر أنهما لا يشبهان الآخرين.

كانت الرسائل والمحادثات المتبادلة مع جلال قليلة لكنها كانت بمثابة مشروب الطاقة الذي استمدت منه القدرة على الاستمرار في إظهار القوة والتحمل وإخفاء الحزن على أبيها، لكن يبقى عليها أن تواجه حزنها وواقع الفراق القادم، فمهما طال الوقت الذي تقضيه مع أمها يتّكئان على بعضهما في هذه المحنة، سيحين موعد الرحيل والفراق، سيفترقان وكلٌّ سيمضي مع حزنه، يبحث عن طريقة لقهره. تمنّت لو باستطاعتها أن تحمل أمها معها، تبقيها قريبة منها وبأمان، حتى وإن استطاعت تدبر أمور (الفيزا) لن تتمكن من إقناع والدتها بترك منزلها. لا

يجيد الكبار التّكيّف مع عالم جديد، سيكون كمن اقتلعته من أرض مثمرة وزرعته في صحراء خاوية.

قضت الأيام التالية في مواساة أمها، وقام الأقارب بمواساتها هي وأخيها مروان. لم يكن المنزل يخلو من الأهل والجيران طيلة فترة النهار، أما الليل فكان وقتها الثمين مع أمها، يتحدثان فيه أو لا يتحدثان، تكتفيان بمشاهدة التلفاز إن حالفهما الحظ ولم ينقطع التيار الكهربائي. كانت تتأمل نظرات أمها الشاردة في تلك الليالي، كيف يغير الحزن والفراق لغة العيون! انطفأ البريق من عينيها وتبدل إلى انكسار وشرود. أصبحت عيناها توحيان بالاستسلام. حتى طبيعة أحاديث أمها قد تغيرت، أصبحت تعبّر عن زهد مكتسب، كمن ينتظر الانتقال إلى الجهة الأخرى من الحياة، حيث تلتقي بمن كانت تحب وغادر. هل الحب هو ما جعلها تشعر أن العالم فارغ بعد أن غادره حبيبها؟ أم هو الافتقاد لرفيق درب عاشت معه لسنين طويلة، تشاركا معاً أوقاتاً سعيدة وذكريات لا تنسى وتحملا أيضاً مصائب الدهر ونوازل الآونة الأخيرة.

وحان وقت الرحيل، كان عناقها لأمها هذه المرة مختلفاً عن عناق لقائهما عند قدومها. غطّت على المشهد آنذاك مشاعر الشوق ودموع الفرح، فرحة لقاء لمن وجد ضالته بعد رحلة طويلة. الآن يعتصر كل منهما الآخر ليفرغ حزن الأيام السابقة، فمهما

حاول الجميع التحلي بالقوة، لا بدّ من لحظات ضعف واستسلام للحزن. لا أحد يعلم كيف سيؤول عليه الوضع في سوريا بشكل عام وفي دمشق بشكل خاص. هل ستتمكن من الزيارة مجدداً؟ هل سيخف الخطر أو يزيد؟ كان هذا العناق محاولة إشباع لسنين وسنين قادمة قد لا يتمكنا فيها من اللقاء. لكن برغم كل هذا الحزن، كان يتملكها شعور ببعض الراحة والطمأنينة لوجود جلال في الطرف الآخر.

استطاع جلال فعلاً تدبر كل الأمور، لم تشغل بالها بالترتيبات، حتى سامي لم يسألها كثيراً عن تفاصيل عودتها. أخبرته أنها ستبيت ليلة واحدة في بيروت وستصل مساء يوم الاثنين. كانت في رحلتها إلى بيروت كمن في رحلة إلى المجهول، فعندما وافقت أن يلتقيها جلال في بيروت ومرافقتها في رحلتها إلى مدينتهما، كانت ما تزال تحت تأثير صدمة موت والدها. كان جلال كمن يشقّ لها طريقاً من نور وسط ظلام الحزن المكبوت. لم تفكر بطبيعة اللقاء وما توقعات جلال لهذا اللقاء وعواقب هذا اللقاء. كانت متأكدة من شيء واحد فقط، أنها بحاجة جلال ولا يهم بأي صفة، رؤية وجهه والاستناد عليه هو كل ما تحتاجه الآن وربما للآن فقط لتستطيع المتابعة وتخطّي حزنها. وصلت بيروت بعد مشقة ساعات الانتظار على الحدود.

كان وجه بيروت يبدو أكثر إشراقاً من دمشق بالرغم من الظروف الصعبة التي تعانيها بيروت أيضاً. كان قلبها يخفق أكثر وأكثر كلما تقدمت سيارة الأجرة في شوارع بيروت. لا تدري كيف أثّرت الأيام الماضية على بشرتها. حاولت ألا تبدو شاحبة، قد تفي بعض مساحيق التجميل بالغرض، وبعض الكحل الأسود قد يضفي بعض النور لعينيها. تركتْ شعرها منساباً على كتفيها واختارت قميصاً أبيض وبنطالاً أسود. حتى وإن كانت لا تؤمن بفكرة الحداد باللباس على من نحب، لم تستطع ارتداء ملابس ملونة حتى وإن كانت ملابس رياضية. كيف يفرض الحزن جبروته حتى في أبسط الأشياء كالثياب؟ لطالما كرهت اللون الأسود لارتباطه بمظاهر الحزن. لم تكن تشارك أمها واجبات العزاء أيام صباها، لم تجرؤ يوماً على الذهاب معها. كان منظر النساء المكتسيات بالسواد يصيبها بالغمّ حتى وإن كان مشهداً من مسلسل أو فيلم. كانت ولا تزال مقتنعة أن مظاهر الحزن الظاهر منها كاللباس والباطن منها كاللوعة تصيب الإنسان بالكبر والشيخوخة فهو لا يلائم صغار السن، وجد فقط للشيوخ الكبار. وها هي الآن شاءت أم أبت وبهذا العمر سواء اعتبرت نفسها صغيرة أو كبرت بالعمر عليها أن تستسلم لمظاهر الحزن وطقوسه.

وصلت إلى الفندق، وما إن توقفت سيارة الأجرة حتى ولجت للداخل غير مكترثة لحقائبها وبحثت عنه. كان ينتظرها في بهو الفندق، التقت العيون أخيراً، أخذها بين ذراعيه وضمها إليه ولم تتمالك نفسها من ذرف الدموع. كانت كمن خبأ كل هذه الدموع لترميها في صدره. بكت بمقدار الأيام الماضية التي لم تستطع فيها البكاء، بكت أحزاناً عاشتها مؤخراً وبكت أشواقاً له أيضاً. هدأت دموعها عندما بدأ يربت بيده على شعرها ويهمس لها:

– لا تقلقي. ستكونين بخير، وسيمرّ كل هذا.

لم ترد أن تفارق صدره، جمعت قواها ونظرت في عينيه، هذا الدفء الذي يشع من عينيه تريد أن تكون معهما إلى الأبد. أرادت تقبيله، أرادت أن تغمض عينيها عن كل العالم، عن أعين الناس التي تراقب وتقبّله لكنها لم تفعل. شعرت بناره تشبه رغبتها لكنه أيضاً لم يفعل. جلسا في بهو الفندق، حدثته بكل ما مرت به في هذه الزيارة القصيرة لمدينتها، زيارة قصيرة لكنها زخمة، كيف تبدلت المدينة وكيف تبدلت أحوال الناس وهمومها. كانت تقصّ عليه أخبارها كما لو أنها جندي خرج من ساحة المعركة، وكان يستمع إليها باهتمام. تسكت فقط لتبحر في زرقة عينيه الصافية، ليبادلها الصمت والنظرات ويبتسما معاً. اقترح عليها جولة في شوارع بيروت وعشاء في إحدى المطاعم المطلّة

على البحر في منطقة (الروشة). وافقت واستأذنتهُ بالصعود إلى غرفتها لأخذ حمام سريع وتبديل ملابسها. أخبرها أن الليل طويل ويمكنها أن تأخذ قسطاً من الراحة إن أرادت. امتنعت فهي لا تريد أن تُضيع دقيقة واحدة بعيدة عن جلال في مدينة لا يعرفون فيها أحداً. أخبرته أنها ليست متعبة بل متحمسة للتعرف على بيروت من جديد، فهي لم تزرها منذ كانت طفلة. أوصلها إلى المصعد وقبل أن تدلف أمسك بيدها وطبع قبلة في راحة يدها، كانت كافية لتسير القشعريرة في جسدها كله، وقال لها:

– سأنتظرك.

خرجا معاً من الفندق، تشجعت وتأبّطت ذراعه كمراهقة. بدا عليه الارتياح والسعادة لقربها منه. بدت شوارع بيروت سعيدة أيضاً، بدت كمدينة للحبّ، تعجّ بالعشّاق، هكذا تخيّلتها. طالما قبلت أن تكون معه، فعليها الآن أن تعيش هذا الحلم وكل ما حولها عليه أن يشاركها. ربما هكذا هي قصص الحب غير العادية، يعيش أبطالها اللحظة فقط ويدعون الغد للغد ويدعون القرارات أيضاً للغد. تسير ولا تدري خطاها إلى أين تأخذها، لا يهمّ طالما هي متشبّثة به. أهداها القدر هذه الفرصة أو ربما جلال من صنعها، في الحالتين هي ممتنّة. لم تدعها أحزانها جانباً، فلم تغب صورة والدها عن ذهنها ولا حالة أمها الآن بعد

فراقها لها، لكنها قررت أن تغمض عينيها قليلاً. وأثناء سيرهم سألته:

– ما الذي جعلك تفكر بالقدوم لمرافقتي؟ لم أصدق عيني عندما قرأت رسالتك تخبرني أنك في بيروت.

– لم تغب كلماتك عندما سألتك هل ستسافرين لوحدك وأجبتِ «بعض الطرق علينا أن نسلكها بمفردنا». بقيتْ هذه الكلمات تحيط بي. عندما توفيت أمي، سلكت طريق الحزن عليها وحدي. الكل كان مشغولاً يداوي أحزانه أو يرتب أوراق حياته من جديد وأقصد بالتأكيد أبي. كان طريقاً موحشاً وطويلاً، استغرقتُ وقتاً طويلاً للخروج منه. لم أرد لك مواجهة حزنك بمفردك، فكرت بكمية الحزن الذي ستحملينه معك في طريق العودة، فقررت أن أسلكه معك علّي أُنسيكِ بعضاً منه أو نحمله معاً حتى ولو لمسافة قصيرة.

كانت هذه من أجمل الكلمات التي قالها أحدهم لها. كلمات نابعة من موقف حقيقي. لم تكن كلمات غزل أو تعبيراً عن أشواق. كانت كلمات تعبر عن مشاعر حقيقية تحتاجها في أصعب الأوقات التي تمر بها. كلماته مدّتها أكثر بالأمان وجعلتها تلتصق به أكثر أثناء مشيهما. تشجعت أخيراً وسألته لماذا انفصل عن (ليز).

– لم تكن (ليز) في يوم من الأيام حبّ حياتي. الانجذاب الأول كان للشكل، فتاة شقراء ذات قوام ممشوق وابتسامة شقيّة، تعرف كيف تبرز مفاتنها دون استعراض، تكررت لقاءاتنا عدة مرات في المكان ذاته دون أن يكلم أحدنا الآخر. اكتفينا بتبادل النظرات الخاطفة حتى فاجأتني في إحدى المرات وأخبرتني أنها معجبة بي. أخبرتها أني أبادلها الإعجاب وقد زاد من إعجابي بها قوة شخصيتها. اختصرت عليّ طريق التعارف الذي طالما كرهته ولم أبرع به. تواعدنا لعدة شهور، كانت مرافقتها في كل مكان متعة حقيقة. كانت تعشق الطبيعة والتنزه، تعشق السهر والرقص، وكل هذا لم يثنِها عن المثابرة في دراستها (للماجستير) والتّرفّع في وظيفتها. كانت أيضاً فضولية تسأل الكثير عن ثقافتنا وعن تعاليم ديننا وتاريخنا. تبدي إعجابها بأشياء وتناقش أشياء أخرى. اعترفتُ لها بحبّي لها، لكن كان هناك شيء ناقص لم أكترث له كثيراً. لا أخفيك علاقة الجسد تكمل أحياناً النواقص أو تملأ الفراغات، والاستقرار الذي شعرته معها جعلني أقدم على الزواج بها. كانت كل المقدمات موجودة حتى في طريقة تعاملها مع حاضرنا، وكعادتي أراحتني فكرة أنها بَنتْ صورة لنا سوياً في المستقبل.

قاطعته:

– مما لا شك فيه أنك تثير إعجاب أغلب الفتيات، فأنت شاب ناجح بكل المقاييس، لك حضور رائع، متفتح وجذاب الشكل، كيف لم تملك الرغبة في إيجاد الحب أو البحث عنه وكأنك استسلمت دون المحاولة وسلّمت لمن وجَدَكَ أولاً؟

– عندما تفرض عليك الحياة في سن مبكرة التزامات ومسؤوليات عليك مواجهتها بمفردك دون سند من أم أو أب أو أخ كبير، قد تبدأ بتعلم غسيل الملابس وتنتهي باتخاذ قرارات مصيرية بشأن الدراسة في الجامعة واختيار التخصص، فعليك أن تكون حذراً لا مجال للخطأ. الأعين تراقب ذاك الشاب الذي يترعرع وحيداً، أحكام مسبقة بالفشل والضياع. بقيت والدة سامي مقربة لي، حاولت لعب دور الأم بالعواطف والخوف على ولدها لكنها كانت عاجزة عن نصحي. اخترت الدراسة في واحدة من أفضل الجامعات التي لم يكن القبول فيها ولا التخرج منها بالسهل. لم يكن لدي وقت للبحث عن علاقات خاصة أثناء الدراسة، هذه الأمور تحتاج إلى الصبر والطاقة ولا حمل لدي. فضلت أثناء العطل وأوقات الفراغ الخروج برفقة الأصدقاء وقضاء أوقات في تعلم رياضات وهوايات جديدة. عندما دخلت (ليز) في حياتي، شعرت أنها ملأتْ ركناً أساسياً في حياتي، عاجلاً أم آجلاً عليّ ملؤه. لكن مع سنة الزواج الأولى شعرت أن ذات الاستقرار الذي

أحببته أصبح عبئاً، لم تتغير حياتنا بعد الزواج، بقيت بذات الصخب والأجواء، لم تتحول إلى استقرار أسري، لم يكن إنجاب الأطفال إحدى مشاريعها، لا للمستقبل القريب أو البعيد. لم أكن أيضاً جاهزاً لهذه الخطوة، لكن معرفتي الوثيقة بتصميمها على قرارها جعلتني أفكر أكثر بأن الشيء الذي جذبني إليها بالبداية وهو قدرتها على تسيير دفّة حياتها وشريكها، أيضاً ربما سيكون الشيء الذي سيبعدني عنها. ولأن ذات الشيء الذي كان ينقص منذ البداية لم يظهر بعد الزواج، بدأ الفتور يسيطر على علاقتنا. لم أعد أكترث للانضمام إليها عندما تخرج مع الأصدقاء وهي أيضاً لم تعد ترافقني في أغلب الأحيان. حديثنا يتطور ليصبح مناقشات لا تفضي إلى نتيجة. لم يجتهد أحدنا لإعمار العلاقة، ولأنها تتمتع بالذكاء لم تشأ أن تمضي قدماً في هذا الزواج وتضيّع وقتاً وفرصاً فاتفقنا على الانفصال.

– هل فكرت أن السبب كونها أمريكية وهناك اختلاف كبير بين البيئتين؟ هل هذا سبب لعدم التفاهم بعد الزواج؟

– لم أشعر منذ صغري بالانتماء للمجتمع العربي ورغم جذوري العربية، كان من الأسهل عليّ الانصهار في مجتمع أمريكي بدلاً من التأرجح بين ثقافتين. اخترت الأقل تعقيداً و(ليز) كانت جزءاً من هذا القرار.

اختار أن ينتمي إلى الثقافة الغربية ويكون جزءاً من المجتمع الأمريكي، وهذا مما لا شك فيه ساعده أكثر على الاعتراف بمشاعره ومواجهتي بحبه لي وحتى استعداده لمواجهة العالم أجمع. هل كان سيملك نفس العزيمة والشجاعة إن كان أسير أحد مجتمعاتنا العربية بكل ما تفرضه من ضوابط وتقاليد ونواهٍ؟ فالاعتراف بالحب لامرأة متزوجة قد يكون من المحرّمات في كل معتقدات مجتمعاتنا وجريمة لكل من الطرفين سواء قبلت هذا الحب أم رفضته. هل عليّ أن أشعر بالامتنان لاختياره مجتمعاً غير مقيّد بأعراف معينة ويتمتع بحرية الاختيار والتعبير، حتى وإن كان هذا غير مألوف أو منطقي؟

صرفت تلك الأفكار من عقلي، وسألته:

– وماذا تغيّر بعد الانفصال؟

– ما تغير فيما بعد أنه عندما كنت ألتقي بكم، كانت أحاديثنا والأجواء العائلية وحتى الطعام بنكهاته العربية تشعرني ببعض الحنين لجذوري العربية، أشعر ببعض الغيرة، أعود لمنزلي البارد ومهما أحاول أن أضفي عليه أجواء عربية أفشل، كما فشلت من قبل في تعلم وصفات الطبخ التقليدية.

كنت أنظر إليه وسؤال يسيطر على ذهني لم أجرؤ على سؤاله، وكأنه رأى الكلمات عالقة في حلقي، فقال:

– لم تكوني يوماً السبب المباشر لانفصالي عن ليز. كنت معجباً بك، لا أنكر هذا، أرجع إعجابي لتلك البراءة والبساطة القادمة من البلاد. فتاة لا أرى شبيهاً لها كل يوم.

– هل برأيك تغيرت البراءة والبساطة؟

– لم تتغير البراءة مطلقاً وذلك الوميض الذي يشع من عينيك لن يختفي أبداً، رأيته اليوم حاضراً رغم هذه الحالة من الحزن والحداد، فتنني وأربكني كما في كل مرة. أما بالنسبة للبساطة فكنت في كل مرة أراكِ، أجد تغيراً في شخصيتك وطريقة كلامك. كنتِ تكتسبين صفات جديدة وكان تصميمك على تعلم اللغة والدراسة قد زاد من ثقتك بنفسك مما أضفى عليك ألقاً متفرداً، ومع كل هذا لم تفقدي تلقائيتك بنقاشك لأفكار تبنيتيها وإلقاء الدعابات والتعليقات السريعة المرتجلة، جعلتني لا أرى سواكِ في المجلس، ترافقيني حتى عندما نفترق فتجعليني أبتسم.

– لم أكن أعلم أني بهذا الظرف ولم أتقصد يوماً أن أسرق الأضواء، وللمناسبة كنت في كثير من الأحيان ألوم نفسي وأوبّخها على تلقائيتي في الحديث، فالتلقائية لا تفسر عند الجميع بحسن النوايا.

غربت الشمس وأقدامنا تسير في شوارع وحارات بيروت، لم ندري كم من الوقت مشينا وتحدثنا قبل أن نشعر بالجوع. كما

فتح جلال شهيتي على الكلام والضحك، فتح شهيتي أيضاً على الطعام. اخترنا مقهى يطلّ على البحر وجلسنا قبالة بعض. من كان يدري أن القدر سيرتب لنا هذا اللقاء في مدينة بيروت ودون تخطيط مسبق. أنظر في عينيه وأسأل ذاتي كيف لهذه النظرات تلك السّطوة عليّ؟ كيف لم أعش هذا الإحساس من قبل؟ هل يختلف الحب من شخص لآخر ومن قصة لقصة؟ هل فعلاً اختبرت الحب من قبل أو هذه هي تجربتي الأولى؟ هل يمكن لكل هذا ألا يكون حبّاً من الأساس؟ هل هي مجرد مشاعر جيّاشة وعابرة؟ ينظر في عينيّ ويبتسم كأنه يدري كمية الأسئلة التي تدور في ذهني ويفضّل الصمت ويطيل النظر ليزيد من حيرتي أو يزيد شغفي إليه.

كل شيء حولنا كان يحتفل بلقائنا، الطقس المعتدل، المنظر الخلّاب لصخرة الروشة وأناقة سكان بيروت، وكأننا اتفقنا ضمنياً أن ننتمي إلى هذا المكان والزمان ولو لساعات محددة. كنا في كل مرة نصمت أتوقع سؤاله عن علاقتي بسامي. أحضّر عشرات الإجابات في ذهني لكنه لا يسأل! هل يتعمد ألّا يأتي على ذكر سامي؟ هل يشعر بتأنيب الضمير أنه صارح زوجة صديقه بحبه لها؟ أم سيشعر بالغيرة إن أخبرته أن علاقتنا لا ينقصها شيء حتى ظهرت أنت في حياتي وبدّلت لدي منحى مشاعري؟ قضينا

وقتاً طويلاً وممتعاً في المقهى نتذوق أطيب الأطباق والحلويات ونزيد من قهوتنا ولا نكفّ عن الكلام، فجلال كعادته متحدّث بارع ومنصت لبق. حاولت ألا يبدو عليّ الإعياء بعد يوم طويل ومشي كثير، لكن جلال لم يخفَ عليه ذلك فغادرنا المقهى. غلبني الإرهاق في طريق العودة، ففقدت القدرة على الكلام لكني لم أفقد القدرة على التفكير والتساؤل. ماذا سيحصل الآن؟ ماذا يدور في ذهن جلال؟ وكيف ستنتهي ليلتنا الفريدة في بيروت؟ وصلنا الفندق وكعادته وعند باب المصعد ولا أعرف إن بدا عليّ التوتر أو لا، نظر في عيني وأجاب على تساؤلات لم أطرحها.

– لا أريد أن أكون أكثر من صديق في محنتك ورفيق لرحلتك. أتمنى الكثير، أشياء أستطيع البوح بها كأن أضمك وآخذك بين ذراعيّ حتى ساعات الفجر الأولى وأشياء لا أستطيع البوح بها. لكن سأنتظر وكما أعدك في كل مرة سأنتظرك ولن أملّ الانتظار.

أمسك يدي وقبّلها.

– سأراكِ في الصباح لتناول الفطور، حاولي أن تأخذي قسطاً من الراحة، تصبحين على خير.

ابتسمت له، وقلت:

– سأكلمك حالما أستيقظ.

دلفت إلى المصعد وبقي هو ينتظر حتى أغلق المصعد أبوابه وأنا بمفردي. لحسن حظي كان قد غلبني التعب لحظة دخولي الغرفة فلم أسمح لدوامة الأسئلة بالبدء. ارتميت على السرير لأغط بنوم عميق علّي أكمل الحلم الجميل الذي بدأته نهاراً بيقظتي. استيقظت صباحاً دون أي منبه، كانت فقط خمس ساعات من النوم، لكنها كانت عميقة وكافية. بقيت عيناي تحدقان بالسقف لمدة عشرة دقائق، أحاول استيعاب أين أنا وماذا حدث البارحة وماذا ينتظرني اليوم.

إنه يوم السفر، وأنا في بيروت، وجلال هنا ليرافقني في رحلتي. أول شيء فعلته هو النظر في الهاتف، تلك العادة الصباحية السيئة التي اكتسبها معظم الناس مؤخّراً. لم أجد رسائل من جلال، لا بدّ أنه لا يزال نائماً. وجدت رسالة من سامي يسأل عن تفاصيل وتوقيت الوصول.

كان قد مرّ أكثر من اثنتي عشرة ساعة لم ترسل لسامي بأي رسالة أو تهاتفه لتطمئنه، وسامي بطبيعة الحال لم يكن من صفاته الإلحاح بالمكالمات أو الرسائل النصية، كانت من عادتها أن تقوم هي أولاً بإرسال الرسائل النصية أو الاتصال لتطمئنه، حتى وإن كانت فقط زيارة سريعة لإحدى الصديقات. لكنها تغيرت منذ سفرها لدمشق ووفاة والدها بسبب الرحلة الطويلة

وفرق التوقيت ولاسيّما المشاعر المختلطة طيلة فترة رحلتها. كل هذا لم يجعلها تركض في كل ساعة لإرسال رسالة صوتية أو نصية. لم تتعمد هذا ولم يكترث هو أو يستاء. ربما جعلته المسؤولية الملقاة عليه مع طفلتين في عالم آخر، يشغل دور الأب والأم وحتى بوجود المربية لن تكون مهمته سهلة وخاصة أنها تجربته الأولى. شعرت أنه يتوجب عليها مكالمة سامي والحديث معه، لكن عندما تذكرت فرق التوقيت اكتفت بإرسال رسالة صوتية طويلة تطمئنه أنها بخير وتستعد للانطلاق بعد قليل إلى المطار، ستتوقف في باريس (ترانزيت). أخبرته لا داعي للقدوم للمطار لاصطحابها مع الطفلتين، ستتدبر أمرها بطلب سيارة من المطار. لم ترسل أي رسالة لجلال فوراً، لكن بعد ساعة من استيقاظها هو من أرسل لها رسالة ليخبرها أنه ينتظرها في مطعم الفندق لتناول الفطور. كانت جاهزة ونزلت مسرعة لملاقاته. هل اشتاقت له منذ البارحة؟ أم هي متحمسة لإكمال الرحلة معه والتعرف عليه عن قرب؟ كان جلال جالساً يتصفح هاتفه، زادته أشعة الشمس الصباحية ألقاً وجاذبية.

– طلبت لك الفطور، البيض (أومليت) وفنجان شاي وبعض الفاكهة، أعرف أنك تفضّلين الشاي على القهوة في الصباح.

– كيف تعرف كل هذا عني؟

– أعرف أيضاً أنك لا تفضّلين أكل البيض بالشوكة، البيض يُؤكل مع الخبز، حتى أنا في بعض الأحيان أتفاجأ كيف أعرف كل شيء عنك، كيف احتفظت بأدق المعلومات عنك وكيف رصدت أدق التفاصيل فيك.

– عندما وجدت نفسي محاصراً فيك أدركت حبي لك، حب لم أستطع بسهولة الاعتراف به أو التجهز له، حتى أني حاولت التهرب منه، ظننت أنها مشاعر قد تتقد إن غذّيناها وقد تنطفئ إن تركناها، لكن لم أنجح، فحتى في البعد عنك لم أستطع التوقف عن التفكير بك ولم أنجح حتى أن أبدأ من جديد مع أحد. المفارقة كيف استنتجت استسلامي في علاقتي السابقة مع ليز وكيف حوّلت هذا الاستسلام إلى ثورة معك، كأن اختياراتي دائماً غير منطقية.

وضحك.

يعرف أن حبه لي بعيد عن المنطق ومع هذا قرّر المضيّ قدماً في هذا الحب، مجازفة أم إصرار، لا أدري. وها أنا هنا ممتنة لوجود جلال بجانبي، شعر بحزني وأراد مرافقتي لكني لا أملك يقينه أو شجاعته. هل أعيش هذه اللحظة كبلهاء غير مدركة للعواقب؟ أو أستغل هذه اللحظة لأستفيد من مشاعر جلال لي؟ أفقد قدرتي على النطق في حضرة كلمات جلال

الواثقة. تشتّتني الأسئلة وتبعثرني في متاهات، لا أملك القدرة على الخروج، ولا يبدو عليّ شيء سوى ابتسامة خفيفة وإيماءة رأس.

(7)

لم تتمالك نفسها من البكاء في آخر مكالمة لها مع أمها قبل الصعود إلى الطائرة، فهذه المحطة الأخيرة في الوداع. وعدت أمها أنها ستأتي قريباً للاطمئنان عليها مهما كانت الظروف، لن يقف شيء في وجهها. لن تتوانى أيضاً في طلب زيارة لوالدتها أو الهجرة حتى وإن كانت أمها رافضة للفكرة. أوصتها ألا تستسلم للوحدة والحزن، ستجد مكاناً للفرح أو الأمل.

هل وجدت الأمل مع جلال وأرادت أن تبثّ شيئاً منه لأمها؟ أم كانت تواسي نفسها قبل أن تواسي أمها، راجية أن تعرف الفرح من جديد بعدما فقدت والدها؟ كان جلال يراقبها من بعيد وهي تتكلم وتبكي، تروح وتجيء في صالة الانتظار، تنظر إليه، يبتسم لها وتسري راحة في جسدها من جديد.

تجلس في الطائرة وجلال إلى جانبها، تنظر إليه ولا تزال تشعر أنها في عالم أبعد ما يكون عن الواقع، فقدان الأب فجأة وظهور حب جلال في حياتها وها هو الآن يرافقها في رحلة لم تخطط لها، يا لها من أحداث سريعة وغريبة. هل فعلاً جلال هو الأمان لها؟

شعر بكمية الحزن والوحدة التي ستشعر بها فتصرّف دون

الرجوع لها واتّخذ قرارات سريعة ليكون برفقتها. هل سامي كان ليتصرف هكذا لولا المعوّقات؟ هل فعلاً يشعر سامي بما تمرّ به الآن؟ أم أنه يواسيها وهو يعرف أنها دورة الحياة وجزء من الواقع عليها تخطّيه، يقدم الدعم المتعارف عليه من عبارات التعزية وشحذ الهمم للتغلب على الحزن؟

تعجّ الطائرة بالناس كما تعجّ بالمشاعر، فرحة اللقاء المنتظر وغصّة الوداع، وربما هناك أناس تبلّدت مشاعرهم وتعودوا على الترحال. يضع يده على يدها لتعود للواقع وتنظر نظرة رضا وشكر أنه هنا. كانت إحدى مضيفات الطيران لا تكفّ النظر إلى جلال والابتسام له، فتسترق هي النظر إليه لترى إن كان يبادلها الابتسام والاهتمام. كيف لم تنتبه من قبل إلى عيون النساء اللاتي تراقبن جلال وكأن هناك هالة من الجاذبية أينما حلّ أو كلما تحدث مع إحداهن سواء باللغة العربية أو الإنكليزية، هدوءه ورصانته أضفت هالة أخرى عليه. كانت تعرف جلال بالشاب الوسيم الذي التقته منذ سنين، لم تعد وسامته شيئاً يبهرها مع تكرار اللقاءات مع العائلة إلى أن رافقته في هذه الرحلة ولاحظت نظرات الإعجاب.

كانت الرحلة هادئة مريحة وخاصة أن جلال انتقى مقاعد في درجة رجال الأعمال، تستلقي لبضع دقائق وتغمض عيناها

علّها تغفو قليلاً وتبقى متيقّظة للمضيفة وابتساماتها الماكرة. عندما فشلت في النوم، استأذنت من جلال لمغادرة مقعدها لأنها بحاجة لتحريك قدميها واستخدام دورة المياه. كان المسافرون يغطّون في النوم ولا يوجد حركة في ممرات الطائرة، فوجدتها فرصة جيدة للتجوّل ذهاباً وإياباً. كانت تبدو شاحبة في مرآة الحمام، لا تدري، أهي الإضاءة البيضاء التعيسة أم فعلاً لم تنجح بإخفاء ملامح الإرهاق وتعب الرحلة. الرحلة ما زالت طويلة، ربما تحاول في مطار باريس تجديد زينتها. أثناء عودتها لمقعدها لمحت ذات المضيفة تتحدث إلى جلال بقمة الارتياح والعفوية. لم تلحظ عودتها لكن جلال لمحها وهي متجهة إليه، وعندما وصلت ودون أن تلاحظ نبرة صوتها قالت لها بالإنكليزية: «عفواً لكنك تعيقين طريقي إلى مقعدي». اعتذرت المضيفة لها وابتعدت قليلاً لكنها بقيت تنظر إلى جلال وتكمل حديثها معه. جلست وهي ما تزال غاضبة، تجاهلت حديثهم وأدارت ظهرها لجهة الشباك وما كان من جلال إلا أن أمسك يدها بلطف ودون أن ينظر إليها قرّبها إليه وقبّلها. لم تدري أكان ارتباكها أكبر أم ارتباك المضيفة التي لم يقطع جلال حديثه معها والتي بدورها استأذنت وانصرفت ولم تعرف روان بأي ملامح غادرت.

– هل كان واضحاً الاستياء عليّ لهذه الدرجة؟

– ربما هذا أجمل شيء حصل منذ التقيك البارحة.

وضحك.

– عيناك فضحت غيرتك، أحببت أن أرى هذا أخيراً.

– إذاً تواطأت معها؟

– أعترف أني أطلت الحديث معها لعودتك لأتأكد من حقيقة غيرتك، لاحظت كيف تراقبين نظراتها وتتبعينها بالنظر إليّ. فَضَحكِ تعبير وجهك ولغة جسدك.

– يا لك من مكّار!

التفت بكامل جسده تجاهها، وتابع قوله:

– أحبك وربما أحببتك منذ التقيتك ولن أحبّ سواكِ ولن أرى سواكِ، وأقصى أحلامي أن تكوني زوجتي، شريكتي، رفيقتي، من حولنا لا يهمني، لا أحد حولنا يهمني.

– كيف لك أن تكون على هذه الدرجة من التّيقّن من أن سعادتك معي؟

– لا يحتاج الموضوع إلى درجة عالية من اليقين، عندما يجد الشخص الحب فمن الطبيعي أن تكون سعادته مع من يحب. أعرف أن حبي لك نشأ في ظروف غير طبيعية أو أقرب للمحرّمة ومهمتي لن تكون سهلة، لكن صدقيني هذا الحب يستحق كل المحاولات والفرص لأكون معك، إن أنت اخترتِ هذا

أيضاً. كُتب لي ألّا تكون أهدافي سهلة المنال، الحياة اختبرتني منذ وفاة والدتي، جعلت من كل ما أريد معركة عليّ الفوز بها، عدم الاستسلام للحزن أو الوحدة، النجاح في الدراسة والعمل، ثم أنت معركتي الكبرى والانتصار الأعظم في حياتي إن فزت بك ولو بعد حين.

– إذاً أنا التحدي الجديد في حياتك؟

– لا أنتِ التحدي الحقيقي في حياتي.

هل جلال التّحدي الحقيقي في حياتي أنا أيضاً؟! أظنّ أنه التحدي الوحيد إلى الآن. لم تضعني الحياة من قبل أمام تحديات حقيقية. أنا التي طالما آمنت بحق النساء بالاختيار وناديت بالشجاعة في اتخاذ القرارات، هل فعلاً سأتحلّى بالشجاعة في مواجهة عالمي واختيار جلال وحبّه؟ هل فعلاً سأتحلّى بالثّبات أمام المتغيّرات والظروف الجديدة؟ والأهم هل فعلاً من حقّنا الاختيار وإن كان اختياراً في منتصف الطريق وقد يبدو اختياراً محظوراً؟!

نزلنا مطار باريس (شارل ديغول). كان يمسك يدي ويبتسم:

– هيا بنا، إنّها باريس مدينة الحب.

أضحك وأجيبه:

– إنه فقط المطار، لن تطأ أقدامنا شوارع باريس.

– سأصطحبك يوماً إلى باريس، ستكون رحلتنا الأولى معاً.

– كما في (كلاسيكات) قصص الحب؟

– ليس لأنها من (كلاسيكات) قصص الحب، أحب باريس وأحب عراقتها وأحب قضاء أوقات طويلة أمشي في شوارعها، أستمتع بمقاهيها المنتشرة على جميع أرصفتها. كان يذهلني في كل مرة أزور فيها باريس قدرة الناس على السهر حتى ساعات متأخرة ورؤيتهم في الصباح الباكر في محطات (المترو) والشوارع يسارعون إلى أعمالهم. يقدّرون الحياة ويستمتعون بها، أحسدهم كيف لا يفرقون في أي يوم من الأسبوع عليهم فعل هذا.

– هيا لا نملك الكثير من الوقت، علينا شراء الحلويات والتذكارات لسنا وياسمينة.

دخلنا متجراً تابعاً للسوق الحرة، كان جلال يبدو سعيداً وهو يختار أنواعاً مختلفة من الشوكولا والحلويات وجمع أشياء صغيرة قد تبهر الأطفال. أقف محتارة وسط المتجر أمام أشياء قد تروق لسامي لا أدري ماذا أفعل، هل عليّ أن أختار شيئاً له؟ أم أني أريد أن أختار شيئاً لجلال؟ أمسكُ أشياء وأعيدها، أشياء بسيطة فقط، فلماذا أحمّل نفسي كل هذا الضغط؟ كأن قراري أصبح جاهزاً بأن سامي لم يعد يعنيني ولا حاجة لإرسال إشارات مختلطة. أم ستكون من اللامبالاة إن لم أحمل له بشيء بسيط

امتناناً وشكراً لمساندته أثناء غيابي. أنظر إلى كوب للقهوة، صُنع من الزجاج الشفاف ورُسم عليه برج (إيفل)، يحبّ سامي جمع أكواب القهوة من مدن مختلفة.

أُفاجَأ بصوت جلال خلفي:

– هل هذا كل شيء؟ علينا أن نحاسب ونتوجّه للبوابة.

أعيد الكوب لمكانه بسرعة متحججة أنه سيكون من العبء عليّ المحافظة على سلامته وإيصاله قطعة واحدة، وأضحك.

ها قد شارفت الرحلة على النهاية، رحلة من خلال رحلة لاكتشاف وجه آخر لجلال وكيف قد تبدو حياتنا معاً. ما هو انطباعه يا ترى؟ ماذا ستترك هذه الرحلة في نفسه تجاهي؟ هل سيزيد حبه لي أم سيختفي أو سيقلّ؟ ربما لن تغير شيئاً سلباً أو إيجاباً. هل غيرت هذه الرحلة شيئاً ما بداخلي؟ هل ساعدتني؟ هل ألهمتني القرار؟ الواضح أنها أرجحتني أكثر مما كانت المطبات الهوائية تؤرجح الطائرة بنا. جعلتني أرى هذا الوجه الجميل لجلال، المحب المعطاء وصاحب اللهفة، جلال الواثق من تصرفاته والهادئ في كلامه. جعلتني أعرف أنه يعني لي الكثير، أستشيط غيظاً أو غيرة كلما ألمح نظرة إعجاب من إحداهن.

ها قد توقفت الطائرة، واختفى ضوء حزام الأمان، وجاءت كلمات جلال الأخيرة لهذه الرحلة:

– سأنتظر حتى يخرج جميع ركاب الطائرة أولاً. لا أريد أن أتسبب في أي إحراج في حال كان أحد ينتظرك في الخارج. كانت ساعات جميلة قضيتها معك رغم الظرف الحزين، لكن بكل أنانية انتحلت دوراً ليس من حقي، استمتعت بلعب هذا الدور، استمتعت بصحبتك وهنئت بكونك جانبي، أحاول أن أرعاك كأني المسؤول عنك. سأشتاق إليك وإلى لقاء قريب، إلى لقاء يجمعنا معاً إلى الأبد. اعتني بنفسك من أجلي، أحبك.

كعادته يباغتني بكلمات أقرب إلى المشاعر، أقف أمامها صامتة مشدوهة، إحساسي عالٍ جداً، أشعر بكل حرف يقوله، لكن ردة فعلي خرساء وبعيدة عن التعبير، يجيد هو الإفصاح وأجيد أنا التلعثم والهرب. جاء ردي بصوت يرتجف:

– شكراً لكل شيء فعلته من أجلي، برغم حزني إلا أن هذه الرحلة تركت في نفسي ذكرى جميلة وسعادة غير متوقعة في ظرف كهذا أمرّ به. سأبقى أذكر كل حديث وضحكة وشارع مشينا فيه، ستبقى كما نسمة رقيقة تخلّلت هذه الأيام.

نظرتُ مطوّلاً إليه، لا أعرف إن كنت أودعه أو أعني شكري له بالنظرات، ربما أجيد هذا أكثر من الكلمات، قد توصل نظراتي ما أشعر به، قد تفضح كلمة (أحبك) أيضاً، كلمة لا يقوى لساني على نطقها رغم إحساسي بها.

غادرته ومشيت، وكلما ابتعدت أدركت أني أمشي على أجزاء مبعثرة من قلبي. أدركت ماذا فعل جلال بي، وماذا يعني لي. جاء بعد هذه السنين لأدرك معنى الحب الحقيقي وكيف يترجم. ربما لا يمر مثل هذا الشخص في حياتنا إلا مرة واحدة، يرسله القدر ليجعلنا نشعر أن اتزان العالم يكمن بين أيدينا وأن الجنة قد تكون على الأرض بوجود هذا الشخص في حياتنا. مشاعر لا تتكرر وتجربة حقيقية نعيشها ربما لمرة واحدة فقط إن كنّا محظوظين. نسيت إلى أين أمشي ومن أين أتيت، كل تفكيري كان محصوراً بجلال وحبي له وما معنى أن أدرك هذا ولا أسعى لتحقيقه، لأن أكون معه وتتحقق الغاية مهما تطلّب الأمر.

طلبت من سامي ألا يأتي إلى المطار لاصطحابي، خاصة أن توقيت وصولي يصادف ساعة الذروة، والقدوم للمطار في هذا التوقيت يعد من المهام الشاقة. تدبرت أمري بطلب سيارة من تطبيق (أوبر). ربما أردت أن أطيل المسافة بيني وبين سامي والزمن الفاصل بيني وبينه، من المطار إلى المنزل رحلة أخرى، أجلس في المقعد الخلفي، نفس الشوارع والطرق سلكتها منذ بضعة أسابيع محملة بمشاعر الخوف والقلق. أسلكها الآن مجدداً، عائدة بمشاعر لم تختلف كثيراً عن سابقتها. هل حقاً زرت دمشق ومشيت في شوارعها؟ هل عانقت عائلتي مؤخراً؟

هل حقاً ودعت أبي وداعه الأخير؟ هل رحل حقاً؟ وجلال؟ هل التقيته هناك في بيروت؟ أم هي تهيّؤات؟ لا أعرف ماذا كان ينتظرني؟ اعترافات وقرارات وتغير جذري لحياتي، أم هي حياتي الطبيعية مع سري العظيم؟

قرارات! هل مطلوب مني قرارات؟

عندما يموت أحد والدينا نشعر باليتم ولا يرتبط هذا بعمر الإنسان، فهل أرمي باللوم على إحساسي هذا فأتخذ القرارات الخاطئة؟ وهل يمكنني أن أستغل انكساري بعد فقدان أبي لأبرر ارتكاب الحماقات؟ جميعنا نرتكب الحماقات، منّا من يرتكبها عن قصد وعمد، مدركاً النتائج لكن غير مكترث، يجد ربما بعض اللذة في الطريق للنتائج، لكن أغلبنا نرتكبها غير مدركين أنها حماقات. لكنها تغدو خطراً جسيماً في عمر معين ومرحلة معينة من حياة الإنسان.

كيف لي أن أمشي وراء إحساس حسبته وهماً لسنين، وتعاظم بين ليلة وضحاها. أصبحت أسيرة هذه المشاعر، أخطو في حياتي بترقب. ماذا عليّ فعله؟ ماذا يخبّئ لي الغد؟ كيف أتخيل حياتي ومع من؟ أسئلة مللت منها ومن تكرارها ودون إجابات في كل مرة.

(8)

حبيبي جلال:

هذه المرة الأولى التي أخاطبك بها بحبيبي، أعتذر أني لم أناديك حبيبي من قبل عندما كنّا معاً، أتمنى لو أني لم أفوّت فرصة النظر بعينيك لأنطقها وتسمعها مني بدلاً من مناداتك حبيبي عبر خطابي هذا.

لن أتردد من أن أخاطبك بحبيبي، لو تعلم كم كنت أشعر بالندم بعد كل لقاء لنا عندما أكون على مقربة من مناداتك حبيبي ولا أفعل. في كل مرة ألقاك بها أهوي بضعفي قبل أن أنطقها وأندم بعدها لأني ومع كل لقاء وبعد كل حديث معك يتملّكني حبك أكثر ويبدو لي كصرح متين عرفته منذ الأزل.

جلال أحببتك بكل ما أوتيت من عقل ومشاعر وأنفاس.

منذ التقينا في الماضي وشعور خفيّ انتابني بأن قدرنا سيتقاطع في يوم من الأيام، لم أدر كيف ولم أفكر فيه كثيراً ولم أسع إليه. أبقيته شعوراً فقط وككثير من المشاعر التي تمر بنا ولا ندرك ماهيتها لكنها تجعلنا مختلفين، مشاعر قد تجعلنا نرتاح بوجودها ومشاعر قد تجعلنا نشقى بوجودها، وربما لهذا السبب تركت للقدر مهمة تسيير هذا الشعور.

لمْ أكن يوماً بحاجة لبراهين تثبت لي صدق مشاعرك ونواياك تجاهي رغم دوي الأسئلة التي تدور في رأسي؛ لمَ أنا؟ ولماذا الآن؟ وماذا بعد؟

قد يبدو هذا الحب للعالم خطيئة علينا التطهر منها لكن ما أوقنه تماماً أن هذه المشاعر لم تخلقْ عبثاً ولم تخلق محرّمة.

نوهم أنفسنا أننا وجدنا حب حياتنا لنكمل مشوار الحياة، تتكشف حقيقة خداعنا لأنفسنا عندما تعصف بنا مشاعر لم نختبرها من قبل. كان وجودك في حياتي يجعلني سعيدة بدون الغوص في معرفة الأسباب، كانت روحي تشتاق لرؤياك عندما يطول الفراق، وجودك في أي مكان كان يغمرني بالأحلام. وها أنا ملكة قلبك، تعترف لي بأنك تحبني وتريد أن نكون معاً، لا تخاف مواجهة العالم لأجلي.

ماذا أريد أكثر من ذلك؟!

كل ما مررت به وعشته في الفترة الماضية، حاولت أن أعيشه كذاتي وأنا مستقلة. حاولت أن أنشق عمّن تجمعني بهم صلة قوية، وحسبت كثيراً أني استطعت عندما كان يطفو حبك في كل ساعة من يومي. أغمض عينيّ علّي أعرف سبيلاً إليك وقراراً يجمعني بك. لم أنسَ عندما أخبرتني أن الحب يحتاج إلى الأنانية في بعض الأحيان، فكرت ملياً وحاولت أن أقنع

نفسي أن سعادتي هي جميل أقدّمه لذاتي حتى وإن كان من مبدأ الأنانية.

تكتشف أيضاً أن الأنانية اختفت من قاموسك أو من حقوقك عندما بكامل إرادتك ابتدأت عالمك الخاص وأصبحت مسؤولاً عن مخلوقات صغيرة ضعيفة، تراك الكون بأسره، تراك منبع الأمان والعاطفة.

عندما استقبلتني نظرات وابتسامات سنا وياسمينة، شعرت أن الكون تبدّل. قادتني سنا إلى غرفتها لأجد كمّاً من الصور واللوحات التي انهمكت في رسمها لي وأنا غائبة. هذه الألوان والخطوط أو الأجدى بالقول (الشخبطات) هي ترجمة مشاعر واشتياق لا توفيها الكلمات حقّها. كنت أقلب الأوراق لأجد نفسي مرة أميرة بثوب ضخم وألوان كثيرة ومرة أخرى كنت فراشة أو حصان (اليونيكورن)، وكنت برفقتهم على الأراجيح أيضاً مع الزهور. كم هو جميل عالمهم، كم هو نقي وخالٍ من السواد والأحزان وخالٍ أيضاً من التساؤلات والقرارات.

دعني أخبرك أني أدركت أن عظمة مشاعر الحب الخاصة لشخص ما بعظمتها وتفرّدها تتضاءل أمام كوننا جزءاً من أمان أشخاص آخرين، مشاعرهم لنا ترتقي إلى القداسة.

أكاد أجزم أنها فرصتي الوحيدة لأعيش مشاعر نادرة منحتني إياها الحياة.

جلال:

كل ما فيك مثالي، فارس أحلام أسطوري، نهاية سعيدة لأي فتاة ترتبط بك، والتخلي عنك ضرب من الجنون. لكن الجنون يصبح عقلانية عندما أرى سعادة سنا وياسمينة تشعّ من أعينهم مجرد ولوجي من الباب، كيف لي أن أختار أي شيء في العالم فوق سعادتهما، ولا أنكر أن سعادتي تفوق سعادتهما بمجرد الاقتراب منهما وعناقهما.

لن ألعب دور المضحية أو الضحية في هذه الحالة، لن تكون حياتي جحيماً مع من اخترت، ستكون حياة هادئة نمطية تشبه الحياة المثالية للملايين على سطح هذا الكوكب، مشاعر تقليدية بيني وبين سامي، قد يحدث شيء يغير مسار هذه المشاعر، قد يكون للأسوأ أو للأفضل وقد لا يتغير إلى آخر المطاف.

عندما بدأت أفكر بمصير قصتنا، كان ينقصني في كل قرار أحاول اتخاذه الشجاعة، شجاعة التمسك بك ومواجهة عالمي أو شجاعة التخلي عنك وتضييع حب لن يتكرر، لكن الشجاعة تجسدت في عيون طفلتيّ، أدركت لما بقيت صورتا

سنا وياسمينة بعيدتين عن كل التشويش الذي مررت به منذ اعترفت لي بحبك.

كانتا على يقين وثقة أن ما يربطنا ببعض خارج دائرة التساؤلات والسيناريوهات المحتملة، نظراتهما إليّ تخبرني أن هناك مشاعر تخلق غير قابلة للمقايضة.

لن أختار سواهما، اختارتاني لأكون بطلة أوراقهما وبطلة حياتهما، فكيف لي أن أختار سعادة أحد ما فوق سعادتهما.

قد أكون أنانية في جوانب أخرى وقد أختار أنانيتي وسعادتي لو أن مصيري مرتبط بسامي فقط.

لكن طالما بملء إرادتي أنجبت وأصبحت مسؤولة عن أطفال صغار لا تعي إلا العطاء لي بلا حسابات، عليّ ألّا أقابل هذا إلا بالعطاء السّخيّ والمشاعر التي مهما وصفت لن يستطيع الوصف الإبلاغ عنها.

جلال:

لم أتقصد أن يكون خطابي هذا درساً في الأمومة وقداسة أو سموّ المشاعر التي تكنّها أي أم لأطفالها.

لكنه إقرار بأن كل المشاعر قابلة للتساؤلات إلا هذه المشاعر فهي يقين وإجابات فاصلة.

النهاية